الطبعة
الثانية
أحمد الملواني
مُفتتحٌ لِلقيامَة
رواية
ساحر الكتب
للنشر والتوزيع

مفتـتح للقيامة

أحمد الملواني

تصميم الغلاف: عمار جمال

تدقيق لغوي: إسلام علي

الإخراج الداخلي: إسلام علي

رقم الإيداع: 2019/25008

الترقيم الدولي: 978-977-6695-32-0

فانتازيون للنشر والتوزيع

مدير النشر: محمد الدواخلي

المدير الفني: إسلام علي

المدير العام: محمد مجدي أبو الهنا

facebook.com/FantasiansPub

Fantasians4@gmail.com

002-01094461896

للتوزيع في مصر والوطن العربي: 002-01090752916

صفحة رابطة فانتازيون: facebook.com/Fantasians

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين ودار فانتازيون للنشر والتوزيع، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر أي جزء من هذا العمل، سواء إلكترونيًا أو فوتوغرافيًا أو أي شكل آخر دون تصريح كتابي موثق من الناشر، يعرض مرتكبه للمساءلة القانونية.

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

مفتتح للقيامة

(رواية)

فانتازيا / ديستوبيا / فلسفية

أحمد الملواني

فانتازيون للنشر والتوزيع

«لم يزل عند نهايات الكون
متسع شاسع للعب»

✷

النهـــايـــات
تـلـدها البدايــات.
كما بـدأت الأرض تـعـود؛
فـــراغ أصفر، وريح تأكل الرمـــال
ثم تبصقـهـا في حدقتي إنســـان وحـيـد،
يعيـد تـمثيل سيرة مبتدأ الخلق؛ متناسيًا أن الكون
-ربما- على حافة فنائه. أنا هو هذا الإنسان؛ ضائع في الخواء،
في فراغ احتراق الأحلام، في نثار رماد له رائحة عرق بشري،
سـادت الأرض لآلاف الســنـيـن ثم تبخـرت. كـمـا
تقتضـي الدراما -المدونة في ألواحها الـمقدسة
منذ خلق الأرض- أنتظر انشقاق الضلوع
عن أنثاي، كحلم أخير. فقد مللت
الوحـــدة؛ عســـانا نـبـدأ
مـعـــا تكـويـنـا
جــديـــدا.

البوصة الرفيعة في يدي تجري على الرمل بين قدمي، راسمةً دائرة صغيرة؛ تهب الرياح فتأخذها مني. أرسم ثانية أكبر، فتأتي الرياح فتأخذها. أرسم أخرى أكبر. ثم أكبر، فأكبر. والرياح في كل مرة تواصل لعبتها. لا تهب إلا عند انتهاء الرسم! يزيد إصراري على الاحتفاظ بدائرتي على الأرض؛ حقي هو كآخر سلالة البشر. ولكن أحيانا أتوقف لأسأل: أهي الرغبة في ترك هذا الأثر البسيط ما يحركني؟ أم هي استساغة اليائس للعبة بائسة مع الرياح؟ ألقي إليها بدائرتي، فتهز ذيلها، وتجري ككلب لطيف لاقتناصها. وفي النهاية حين تمل الرياح اللعب، تجري حولي بسرعتها، وتحمل ذرات الرمل من ساحة الملعب -بطفولية- وتلقيها على جسدي، فأختبئ منها متكورا تحت العباءة الخشنة وأضحك. أحيانا يستفزها ضحكي، فيتحول دلالها المرح إلى عنف حقيقي مقصود، فتكاد تقتلعني من مكمني، فأهرب منها إلى حيث الجبل -الأب- الصخري الصغير، وأختبئ في ذلك الشق الوحيد -مثلي- في تكوينه الصلب الأملس. وأبقى هناك حتى تأتي الأم -الشمس- وتنهر الرياح على شقاوتها، وكشرطي ماهر تبسط سيطرتها على المكان، وتناديني في الميكروفون:

- «اخرج من مخبئك؛ فقد زال الخطر»

في النهار تخاصمني الرياح؛ الأم -الشمس- تقف كحارس يقظ، فلا تفلح الرياح في التسلل إليّ عن غفلة منها، ولا حتى إن توسلتُ إليها أن تسمح للرياح بالقدوم للعب معي في لحظات الضجر. فأحمل بندقيتي إلى منابت الكلأ، عند حواف عين الماء، بحثا عن صيد ليوم ثان يمر علي بلا طعام سوى العشب مر المذاق.

الأرانب هي الصيد الوحيد المتوفر؛ فهي وحدها نجت من حتمية النهاية. ربما لأنها أجبن المخلوقات، وربما لأنها تجيد الاختباء في جحور، فلم يطلها انطباق السماء على الأرض؛ ذلك العناق الذي دام لثانيتين -كما أظن- فأفنى

الدواب إلاي والأرانب. ذلك اليوم الهارب من إحصاء الأيام، حيث سقطت آخر ورقة من رزنامة التاريخ، فما عدت أعرف للزمن أمارات مرور. حين بلغت في الجبل عمقا لم يبلغه بشر من قبل. زملائي خشوا في عيني جنون الحماس، وأنا أخبرهم أني ماض في سعيي إلى موطن تحقق الأحلام. شاهدوا -في ظلام المنجم- وهج الشعلة في يدي يختفي تحت عمق المزيد من أطنان الرمل والحجر، وأنا أحفر وأحفر لاهيا عن مغادرتهم للمنجم آسفين على فقدي. بعد أمتار شعرت بحركة تحت قدمي، وجهت شعلتي فلمحت بالكاد أطراف الفراء الأبيض تختفي في جحر مظلم. ضربت بمعولي حدود الجحر، فحولته إلى نفق صغير يصلح لمروري حبوًا. رأيت الفراء الأبيض من جديد يغوص في عمق الظلام، فتبعته. رأيته من جديد بعد ثانيتين، فاختفى؛ وكأنما يتباطأ انتظارا للحاقي به، قبل أن يقرر في لحظة دنو الالتقاء أن يبتعد.

صرت أميز فيه -مع تواصل السعي خلفه- أرنبا شاهق البياض، بالغ الضخامة، في حجم كلب كبير، فأنساني سعي الشهور الماضية خلف اللمعان الثمين للماس، وبات التوق الأخير للنفس اصطياده. توغلت طويلا في الجبل حتى كانت الهزة العاتية، وكأنما الأرض ذاتها انتفضت وأنا محشور بداخلها، فشعرت بنفسي أعلو فجأة، وأهبط بعنف، دون أن يغادر جسدي التصاقه المنبطح بالتربة العطنة. فقدت الوعي، وحين أفقت كان الأرنب جاثما على صدري ثقيلا، لما رأى اتساع عيني ركض مبتعدا وهو يحفر نفقا جديدا في الجدار، تبعته طويلا حتى رأيت الضوء، فخرجت من رحم الأرض -قد اختفى الجبل الذي كان هنا- وحيدا، ضائعا، كما يليق بآخر البشر.

عندما أنهيتُ وجبتي تمددت على الرمل الناعم. الأرنب الذي صدته كان كبيرا، فما كانت تلك بحجة تعصمه من جوعي. التهمته لآخر قضمة، وشربتُ

كثيرا من ماء النبع، فأصابني ثقل مخدر، استسلمت له مستمتعا. جاءني في النوم الأرنب الأبيض، ضخما يحجب عني الشمس، أشار إلى الجبل الصخري الصغير وقال:

ـ «إياك وقمة الجبل»

ثم اختفى.. نظرت إلى الجبل، فتعجبت حين رأيتُ لتكوينه الصلب نهدين نافرين، يلمعان في ضوء الشمس. وحين صحوت، كان جسدي في تقلبه قد يمم الوجه شطر الأب -الجبل. تأملته على بعد المسافة، فكانت الأم -الشمس- تميل إليه، في مبتدأ رحلة غروبها. أكبر هو من أن يكون صخرة، وأكثر ضآلة من أن يكون جبلًا. قمته شبه المدببة، وتكوينه المخروطي، جعلاه كمخلب عملاق يخرج من عمق الأرض ليخدش بالكاد جلد السماء. كنت -منذ أن حططت رحالي هنا- قد أطلقتُ عليه اسم والدي، كأي مستكشف يطلق اسم العائلة أو الزوجة أو أحد الأبناء على كشف عظيم، وبعدها صرت أناديه: «أبي». في لحظة التأمل القصير تلك، واتتني الفكرة..

سأرسم دائرة كبيرة على الرمال. دائرة سيصعب على الرياح محوها؛ لأن أبي -الجبل- سيحميها. سرت في دائرة تامة حول الجبل، أسحب البوصة خلفي على الأرض راسما بها مساري كخط في الرمال. حتى إذا ما اكتملت الدورة، وبلغت نقطة الانطلاق، لامستْ البوصة بداية الخط المرسوم، فاكتملت الدائرة. كنت سعيدًا بهذا الإنجاز، فقررتُ أن أصعد إلى القمة لأرى بعين الطائر، مدى كمالها. تشبثتُ في الصخور الملساء، استخدمت النتوءات كدرجات السلم، فاكتشفت أن الصعود ليس بصعب، ولا حتى لرجل احترف النزول إلى أعماق الأرض. كنتُ أريد أن أتم رحلتي الصعود والهبوط قبل أن تتم الأم -الشمس- رحلة الغروب. عند القمة أدركتُ آخر ضوء لاستطلاع دائرتي. أرسلتُ البصر من هذه المسافة، لحظة أن أتت الرياح مسرعة نزقة، فمحت الدائرة. ضحكتُ؛ فقد كانت مهارة منها في اختيار التوقيت؛ فهي

لحظة أن بدأت الأم -الشمس- ترخي جفنيها، لاهيةً عني، ولحظة أن شعرت بحلاوة ملامسة الانتصار بعد الجهد. صفقتُ بيدي للرياح، فقد تفوقت على نفسها. كان جسدي ينتفض نشوة، حين أتبع بصري رحلة الأم -الشمس- لمخدعها، فلمحتُ أمامها على البعد صروحا لم تزل شامخة وسط الرمال. كان لي زمن منذ أن عثرتُ على آخر أطلال في رحلتي الأبدية، فكان في هذا سببٌ لسعادتي؛ فربما أجد في هذه الأطلال بعض الاحتياجات الملحة، كرصاصات لبندقيتي، أو المزيد من أعواد الثقاب، والحطب. حالما في صحوي باكتشاف تلك الخرائب، شرعتُ في رحلة العودة. وهج الأفكار الكبرى أعماني عن التقدير السليم لمدى صعوبة الهبوط. حاولتُ اللجوء للحذر والروية، ولكن كان لابد للقدم أن تنزلق. كنت واثقًا من حدوثه؛ رأيته في رؤية طارئة صاحبت خطواتي الهابطة، ففاجأتني رجفة خوف، وقدَّر جسدي عنف الارتطام بالأرض، حتى قبل أن تنزلق القدم. ولكن تقديرات الخيال لم تكن صحيحة مرة أخرى، فالارتطام لم تنتج عنه شدة الألم المنتظرة؛ وإنما ظلام، وخواء، يحسبه المشتاق للموت: موتا.

حينما أفاق عقلي، اكتشف أن الجسد لم يفق بعد. استعدت الرؤية، وحساسية الإدراك، دون القدرة على الحركة. فكرتُ كيف أن شلل الجسد في وضع كهذا، تجربة غير لطيفة بالمرة! يا فرحة الرياح في عجزي! ربما عند الأم -الشمس- حل للمأساة الوليدة. ربما الأب -الجبل- يميل بثقله ليسحقني، سحقة الرحمة. ولكن إدراكي يلتقط ضوءَ يراقص ظلام الليل، ودخان يحمل رائحة شواء الأرانب. رفعتُ رأسي فأطاعتني على غير ما توقعت. عند قدمي كان اللهب يتصاعد مغازلا الجسد المسلوخ المعلق على عارضة خشبية رفيعة. كان عليّ اختراق وهج النار والدخان لأميز الجسد المتكوم تحت دثار لا يظهر سوى وجه جامد، وعينين لامعتين تراقبان نضج الطعام. مرة أخرى

حاولت الحركة، فلم أقدر، وإنما انتبهتُ للفافة قماشية كبيرة تلف جسدي كله عدا الرأس، فتحيلني إلى شرنقة آدمية. كنت مذعورا أكثر مني فرحا؛ فرؤية إنسان بعد أن استقر بي الإيمان لأزمان إلى أني الإنسان الأخير، لهي مفاجأة تليق بحكايات الرعب. بصوته العجوز قال:

ـ «لا تأمل في حركة الآن؛ جسدك لم يزل في طور الترميم»

احتجتُ وقتا وجهدا لترجمة ما قاله؛ وكأنما نسيت أذني أصوات البشر، ومراقصة الأنغام لحروف اللغة. واحتجتُ جهدا أكبر للنطق؛ فاللسان فقد مرونة الالتواء مع مخارج الكلمات. فخرجت في البدء أصوات تأوهات متقطعة، ثم تمتمات بلا معنى، حتى روضت -بعد جهد- مخارج الأصوات، فكانت كلمات يمكن فهمها..

ـ «من أنت؟»

زحف على مؤخرته معدلا موضعه من النار، لتضيء وجهه، بدلا من الحيلولة بيننا. كان عجوزا باسما، نحيلا، مريح القسمات، وإن وارت ملامحه، تجاعيد الأزمان. قال:

ـ «أنا من أجارك في مصيبتك. حين وجدتك كانت عظامك مكسرة، وعقلك في غيبوبة ابتداء الموت. داويتك بفضل الله، ولم يبق لك سوى يوم أو اثنين وتستعيد عافيتك»

كنت أحاول تنظيم الأسئلة المتزاحمة على بوابة النطق، في صف واحد طويل، بدلا من الفوضى. سألته أولا:

ـ «منذ متى وأنا هكذا؟»

أخرج من جيبه ساعة عتيقة، فتح غطاءها النحاسي، ناظرها ثم قال:

ـ «باقٍ لك ساعتان، وتصير المدة ستة أيام»

كنتُ لم أر ساعة منذ زمن طويل فقدت فيه مفهوم الوقت. لاحظ تأملاتي صوب الساعة في يده، فقال:

ـ «ساعة عتيقة تعمل بالزنبرك؛ ففي نهايات الأزمان، تزدهر المعتقات»

ابتسمت وسألته:

ـ «وفي الطب كذلك تدوم المعتقات؟»

هز رأسه وأجاب جادا:

ـ «كنتُ أنا فيما مضى طبيبا. لا من ذلك النوع الذي يختال في معطف أبيض، ويخبئ جهله وقلة حيلته في تجاويف عميقة بجسد الأجهزة الحديثة. أنا كنتُ في عالمكم الحديث عتيقا؛ أحمل الحكمة وعلوم الأجداد في رأسي وأرتحل. ديناصورا عجوزا أجوب الأرض بحثا عمن يحتاجني وأحتاجه. وفي كل قرية وطأت القدم ترابها كنت أجد المزيد لأتعلمه، والكثير من مخازن خبرتي لأمنحه. من القبائل الإفريقية، إلى السكان الأصليين للقارة الأسترالية، إلى قرى في جنوب مصر، وحتى الأمم المنسية في عمق اشتباك غابات الأمازون؛ وحدي من بين كل البشر وجدتُها ويممتُ إليها وجهي زائرا. هذا الديناصور هو من بقي في رأسه العلم، لحظة أن أسقطت السماء عن البشر رداء الحداثة والتكنولوجيا المتهرئ، فبدت سوءاتهم.

قلت له:

ـ «ولكن البشر أفنوا»

ابتسم وهو يقطع نسلة من فخذ الأرنب مختبرا نضجه، وقال:

ـ «من أين أتيت أنا إذا؟ أم ترى بك غرورٌ هيأ لك أنك آخر البشر؟!»

واريتُ خجلي من إجابة سؤاله في سؤال جديد:

ـ «أهناك آخرون؟»

قطع فخذ الأرنب، وقطعة من وسطه بمطواة ووضعهما في طبق بلاستيكي أخرجه من صرة معه. اقترب مني وهو يقول:

ـ «بالتأكيد هناك آخرون. أنا التقيت بعضهم في أسفاري»

قطع من اللحم -الشهية رائحته- قطعة صغيرة بأطراف أصابعه. غمرها بطبقة رقيقة من زفيره ليذهب عنها سخونه الشواء. ثم دسها في فمي آمرا:

ـ «امضغها على مهل»

لحظة ملامسة عصارة اللحم الطري للساني وحلقي أدركتُ كم كنت جائعا. حاولت قهر الشهوة واتباع نصيحته، فقلتُ محاولا إلهاء النفس عن اتباع هوى البطن:

ـ «كيف تصطاد؟ ألديك بندقية؟»

هز رأسه.

ـ «أصنع الفخاخ»

دس في فمي قطعة لحم أكبر حجما.

ـ «ألديك أنت واحدة؟»

انتظرت حتى خلا في فمي براحا ملائما لإخراج الكلمات، ثم قلت:

ـ «أجل، ولكن طلقاتها قاربت حد النفاد»

تذكرت عندها الأطلال المنسية التي رأيتها من عل، فسألته:

ـ «هناك خرائب إلى الغرب من هنا، أسبق لك زيارتها؟»

أظهر بحركة الرأس نفيا:

ـ «قادم أنا من الشرق»

قلت له:

ـ «آمل أن أجد هناك طلقات لبندقيتي؛ فبدونها لن آكل إلا الكلأ الرطب»

دس في فمي قطعة لحم:

ـ «أو ربما الأفضل أن أعلمك أنا صنع الفخاخ»

ابتسمت للفكرة، فقلت:

ـ «ربما أتعلم منك الكثير؛ فأنت تبدو كرجل صاحب حكمة»

قال الرجل:

ـ «وأنت تبدو كرجل بحاجة إلى الحكمة»

ابتسمنا معا راضيين عما بلغه أول تعارف بيننا، وارتسمت أمامنا مخططات صامتة لأيام حافلة قادمة.

لم أعرف له اسما ولم أسأله عن واحد؛ فلا حاجة لأسماء لتمييز رجلين لا أحد سواهما في خواء يبلغ -ربما- ملايين الأميال. في اليوم التالي فك عني الأربطة القاسية فوجدت بي -لم تزل- قدرة على الحركة. أخبرني إنني كنت سأبقى فريسة سهلة لذئب الصحراء إن لم يداوني. تعجبتُ لكلماته؛ فأنا لم أر حيوانا سوى الأرانب منذ أن خرجت من رحم الأرض، فأجاب حيرتي:

ـ «ربما أنت يا صديقي ما كنت ترى سوى ما تتوقع وجوده. كم أنت في حاجة إلى الحكمة! بسبب إيمان أحمق -غلف بصرك وبصيرتك- بأنك آخر البشر، فأنت لم تلقَ منهم أحدا طوال ما فات من الارتحال. ولأنك آمنت

ببقاء الأرانب وحدها كآخر الحيوانات، فلم تر سواها. لم تسمع عواء الذئب في أمسيات القمر. لم تسمح لك الرياح برؤية مواطن حفر أقدامه المخلبية الضخمة في الرمال. وربما كذلك حملت رائحة روثه بعيدا عنك، ورائحتك بعيدا عنه، ليلة أن بات قريبا من مخبئك في شق الجبل. كم أنت بحاجة الى إعادة شحذ بصيرتك!

مبهورا قلت:

ـ «علمني؛ فأنت معلمي ومولاي»

فقال:

ـ «الرؤية نبات العقل، وللعقل تربة تأكل من طرح الرؤية فتزداد خصوبة. وبهما معا يكتمل الإدراك والفهم، فينكشف عنك حجاب الهوى وأكاذيب القلب. فإن بلغت الرؤية منتهى صفائها، اخترقت ساتر الأزمان، فتغرس في العقل إدراك ما كان، وما سيصير»

قلت له:

ـ «حدثني عن المزيد»

فتبسم ضاحكا.

ـ «ليس كل ما يرجوه المرء يدركه في سحر الكلمات. عليك باتباع الأفعال لتكتمل لك المعرفة»

تصاحبنا ثلاثة أيام. حدثني فيها عن الكثير والكثير، عدا ما كنت أبغيه عن صناعة الفخاخ للأرانب. تناسيت الأمر -أغلب الأحيان- متبعا سحر المعرفة، وحين أتذكره، فأحدثه به، يهز الرأس أسفا، ويقول:

ـ «لماذا لا تستطيع معي صبرا؟!»

في اليوم الثالث أيقظني والأم -الشمس- لم تزل تتثاءب، وقال:

ـ «سنذهب اليوم إلى النهر»

تعجبت فقلت:

ـ «أي نهر؟»

ابتسم وقال:

ـ «هيا، اتبعني إلى الشمال»

لم أكن قد سرتُ شمالا من قبل؛ فأنا منذ أن جئتُ إلى هنا، وقعتُ في هوى الجبل الصخري الصغير، وكان لي أزمان لم أرَ فيها جبالا، بعد أن مهدت الكارثة الأرض، فباتت سواء، بغير انبعاج. قررتُ لذا أن أمكث في رحابه لفترة، وأهملت اكتشاف ما حولي مكتفيا بنبع الماء القريب. فكان الجهل البادي في عيني وكلماتي فرصة ليذكرني:

ـ «يا لك من مسكين مفتقر للحكمة»

حملت المتاع القليل وودعت الأب -الجبل- فكان حزينا في ضوء الشفق. واسيته ووعدته بعودة سريعة. طوال الطريق حاولتُ أن أبعد عيني عنه، إلا ما انفلت مني قهرا ليزيد همي. ما خفف عني أن الأم -الشمس- لم تتركني، وسارت معنا ملبية -لم تزل- عهد حمايتها لي.

في الطريق حدثني مولاي عن ذئب الصحراء الضخم؛ القاتل الذي ربما هو آخر من بقي من سلالة الذئاب، فتضاعفت شراسته وبات الحقد يحركه ضد كل الكائنات، وليس الجوع؛ هي شهوة التدمير، وكأنما يريد أن يفني الكون قبل أن تحين ساعته.

ـ «كم هو مسكين يستحق الشفقة!»

قالها مولاي، فراجعته:

ـ «كيف يكون ذلك الوحش مسكينا؟!»

أجاب:

ـ «تخيل كم فقد من الأحباب؛ الأهل، والزوجة، والأبناء! وهو حيوان خلقه الله، ووضعه على صراط الهوى، فلا حكمة له أو عقل؛ فكيف له أن يتصرف بغير هذا؟!»

برغم لين القلب هذا علّمني كيف أنجو إن واجهت الذئب يوما، وكيف أختبئ خلف الرياح فلا تبلغه رائحتي. حدثته أن الرياح مستحيل أن آمن جانبها..

ـ «هي غالبا ما تشاكسني يا مولاي. عاشقةٌ هي للألاعيب النزقة، والمزاح الثقيل؛ فربما إن اختبأت خلفها، عدلت مسارها لتفضحني»

ضحك مولاي، فاحمر وجهه، فقال:

ـ «حاول إذن أن تقيم معها عهدا قبل مواجهة الذئب؛ فلن يجيرك سواها»

حدثني أيضا عن ضرورة الاحتفاظ بطلقات لبندقيتي للذئب، فلا أهدرها كلها على صيد الأرانب. انتهزتها فرصة للقول، فقلت:

ـ «علّمني إذن كيف أصنع الفخاخ»

فقال كما توقعت:

ـ «لماذا لا تستطيع معي صبرا؟!»

حين بلغنا النهر هالني اتساعه، وبهاء اللون الأخضر الخجول على جانبيه. كان يـتـلـوى أمامنا طاعنا عمق الصحراء، ممتدا إلى مالانهاية. سرنا بمحاذاته،

يطربنا خريره، حتى توقفنا أمام نبتة طالت فبلغت خاصراتنا، فقال مولاي:

ـ «انظر، هذه شجرة تنبت. هي الأولى منذ أزمان. علينا أن نرعاها. سنقيم هنا في انتظارها، ففيها أملٌ مباركٌ»

ناشدته الإيضاح، فقال:

ـ «سننتظر اشتداد عودها، ثم نأخذ من خشبها، ونصنع لنا فلكا يحملنا إلى شمال النهر»

سألته:

ـ «ولماذا إلى شمال النهر؟»

فقال:

ـ «هناك -كما سمعت في الترحال- آخر مدن البشر. ليست حديثة كمدن ما قبل الفناء، ولكنها مجتمع قائم يرحب بكل من يبلغه لإعادة إنتاج البشرية»

راقص قلبي هذا الأمل، فاتسعت على الوجه ابتسامة. بينما قال مولاي:

ـ «اجلس فأحدثك عن صناعة الفلك؛ فربما لا يطول بي الأجل حتى تشب الشجرة»

متعجلا قلت:

ـ «أطال الله عمرك يا مولاي»

تبسم وقال مشفقا:

ـ «ما زلت تفتقر الى الحكمة. حتى وإن نجوتُ من الكارثة؛ فأنا بعد لم أزل طاعنا، والموت أقرب لي من دخول النفس التالي إلى الصدر»

لم أشأ مجادلته. سحب كل منا ملء قبضة يده من العشب الرطب الزاهي

تحتنا، ولاكها ببطء خال من الاستمتاع. ومع ظهور مساحة من طين مكان العشب المقطوف، بدأ مولاي يرسم عليها بإصبعه تخطيطا للفلك، كلوح كبير يطفو على الماء، ووتد عال، بأعلاه عارضة قصيرة لتعليق الشراع.

ـ «عليك أن تحفظ هذا جيدا. ولتكن مهمتنا -في انتظار نمو الشجرة- تنقيب الخرائب عن أدوات ملائمة لصناعة الفلك؛ نحتاج أدوات لتقطيع الخشب، وحبال، وقماش للشراع؛ كل ما يمكننا إيجاده منها»

حدثني طوال الليل عما سمعه من حكايات عن المدينة الأخيرة، فكانت كلماته محملة بأمل عذب كحدوتة أم لابنها، فلا أدري كيف ولا متى نمت.

استيقظتُ فكانت النبتة الطفلة بجواري، وكانت رطوبة العشب تحتي لم تزل، وخرير الماء الجاري لم يزل يطربني. كل شيء كما تركته عدا مولاي، فلا أثر له. كان يغيب غالبا أثناء نومي لفترات ثم يعود بصيد جديد، أغتاظ ساعتها لأنه تعمد الصيد في منأى عني، فلا تطالني منه المعرفة المرجوة، وتبقى صناعة الفخاخ سره القدسي. هذه المرة عزمت ألا أصمت، سأواجهه حين عودته، ومن يده يتدلى -كالمعتاد- الأرنب المذبوح. مع تمدد زمن الانتظار، انكمش الأمل، ولم يعد من متسع سوى لفكرة وقحة أصارعها منذ اليقظة؛ منذ لاحظت أن كل متاعي قد اختفى! كنوزي الصغيرة التي جمعتها من عناء أزمان طويلة من السعي بين أطلال مدن البشر الفانية؛ البندقية، والعباءة الثقيلة، والمشمع الذي يقيني أمطار الصحراء الجارفة، وحتى الثقاب الساكن جيبي؛ كل شيء اختفى. تسمرت في مكاني بلا جوع أو عطش، متنزه عن أية أفكار أو بواكير شعور -جامد كتمثال- أقاوم الاعتراف بحقيقة جلية. كانت الأم -الشمس- تتوارى مني عند أفق الغرب، آسفة على حالي، حين اعترفت لنفسي أخيرا بها: لقد سرقني مولاي ورحل! لم يترك لي

سوى بوصتي التي أرسم بها على الرمل دوائري، وأمل مبهم عن مدينة شمال النهر.

كالوس..

أنا الذي واجهتُ الغضب الأعظم، فلم أرتج. أنا الذي غلب كبريائي، عقلي والفؤاد، فصرتُ أعظمَ من تمرد على كاتب الدهر. أنا الذي فتحت الصدر للنبذ بعد أن كنت طاووسا، حين قلت: «لا». فلم تهمني قسوة الحكم، أو يردعني الطرد من الرحمة. أنا المغرور ولا فخر! أنا المزهو بلعنتي. أنا الخالد بين كائنات الأرض. أنا داهس الهامات بقدمي. أنا محني القامات لمشيئتي. أنا من فاق أتباعي -عددا- أتباع خالقي. أنا من قاربت الفوز بالرهان.

أنا إبليس المعظم؛ أنا المشتبك الآن بلعبة أخيرة، برغم انتصاراتي الساحقة في مليارات الجولات. ولكنها تلك الجولة الأخيرة، زينة الخواتيم، فبها كل سيرتي ومكامن مجدي. أنا الذي سأضع آخر الكلمات، وآخر الضحكات حتى وجلدي تسليه النار. النصر الأخير لي. آخر البشر لي، ولن يموت إلا ملعونا بغوايتي.

قرفصت فوق السحابة أراقبه. غادر النهر مرتحلا صوب الخرائب في الغرب. لا أمل له سوى في العثور هناك على ما يعوض متاعه المسلوب. كان يقاوم حيرة -لا شك في هذا- فغباء المخلوقات الطينية لن يتغير، ولا حتى إن كان آخر من بقي منهم. يحترق صراعا في الأعماق؛ يريد العقل أن يكذب ما غرسته فيه الرؤية، يتمنى لو كان مولاه أصدق من حواسه، أن تحفظه المخيلة حكيما، شيخا، حامل العلم الأعظم، الراعي والحامي. يتمنى لو طاوعه العقل ونفى الرؤية؛ فهو لم يُخدع، والشيخ ليس بلص حقير. هذه هي حقيقة المخلوق الطيني؛ جهول مخادع. إن خدع الآخرين مرة، خدع نفسه قبالتها مئات المرات. ومن أجل هذا الصلصال الأجوف غادرت أنا جنتي منبوذا بعد أن كنت بينهم الطاووس.

فماذا لو علم ذلك الجهول أن مولاه كان هو إبليس ذاته؟ أقشعر لمجرد استعادة الذكرى. أنا الذي يصيبني التجسد في أشكال البشر بالغثيان. أنا الذي اغتسلتُ طويلا في ماء النهر وما تطهرت، لم تزل رائحة البشر النتنة عالقة بي. ولكنها لعبة أخيرة، واللعبة الأخيرة لي وحدي؛ لن أدعو أحدا من الأتباع للتدخل. البشري الأخير لن يفنى قبل أن يرتكب خطيئة أخيرة. لم يعد من أحد يسرقه أو يقتله فكل البشر هلكوا. ما من حق يسلبه؛ فالكون صار له خالصا. ليس هناك سواه، ونفسه البائسة. ليس من ثمة خطيئة باقية لارتكابها سوى قتل النفس. وليس من باعث لهكذا جريمة سوى منتهى اليأس، وما مبتدأ اليأس إلا عظيم الأمل.

«لم يزل عند نهايات الكون
متسع شاسع للسحر»

الرياح الشقية تدغدغني بعنف، ثم تركض مبتعدة، وتتركني ممزقا على ضحكاتي اللاهية. الأم -الشمس- تركَتها في غفلة -مقصودة- نادرة؛ عساها تسري عني. كنت أحب دغدغة الرياح لجسدي، وإن اختبأتُ منها خلف أطراف ثوبي المتهرئ؛ أضمها الى صدري، وأحمي بها وجهي من بصقات الرمال. واصلتْ الرياح دعاباتها الثقيلة حتى إذا ما بلغت الأطلال، مرقت مجلجلة ضحكتها بين بنايتين شبه متهدمتين. منذ زمن لم أر أطلالًا كتلك؛ البنايات القليلة احتفظت بكثير من تماسكها. ومنها ما بقي منتصبا إلى السماء بأكثر من ستة طوابق. اصطفاف البنايات حدد شكل الشوارع التي غمرها الرمل الأصفر. اقتربتُ من البناية الأولى، فأدركت أنها ليست سوى الطوابق الأخيرة من بناية مدفون معظمها تحت الرمال. تسللتُ عبر فجوة متهدمة في الجدار. هناك كانت أكوامٌ من متاع مفتت؛ أخشاب ومعادن وأقمشة تاهت معالمها. مطموسة كانت أية آثار تدل على الأشكال التي اتخذتها هذه الأشلاء قديما. سحبت من بينها قطعة قماش متآكلة الأطراف -ربما كانت يوما غطاء لفراش، تفتت بصاحبه لحظة الواقعة- ربطت أطرافها معا، مشكلا صرة ملائمة لحفظ اكتشافاتي المأمولة مما بين الحطام.

أول الاكتشافات كانت قطعة معدنية صدئة. قربتها من نظري، مخترقا ضعف الرؤية في ضوء الشمس -المحتضر غربا- المتسلل عبر الفجوة. كانت سلاح سكين صدئ فقد مقبضه. اكتشاف أول مشجع، أثار حماستي. وضعته في الصرة وحاولت أن أمارس ببصري مسحا سريعا على المكان قبل تمام الظلام. الأخشاب كثيرة، تغويني بنار مستعرة قادمة، يغازل خيالاتي دفئ لهبها؛ فقط إن عثرتُ على ما أشعلها بها؛ أعواد ثقاب ربما، أو قداحة لم تزل على عهدها مع النار. أشياء دقيقة قد تغير مسارات حياتي لأزمان قادمة.

أشياء دقيقة، يستحيل تبينها في لحظات اجتياح العتمة تلك. قررتُ أن أغلق صرتي -ولهفتي- على الأمل المتنامي في الروح، وأصبر لطلوع النهار. سحبت

من الأرض قطعة قماش متسخة، ولكن ثقلها وكبر حجمها ميزاها، وخرجت من الفجوة كما دخلت (ها أنا يا مولاي استطعت صبرا.. آه إن كنت تراني الآن!). المكان كان يغويني بمبيت ليلة دافئة بعيدا عن بصقات الرياح، ولكنني خشيت انهيار الصرح الصامد فوقي حين النوم، فربما دفعته الرياح اللعوب كمزحة أخيرة.

اخترتُ موضعا بعيدا عن أي بناء، بسطت قطعة القماش. فردت الجسد المكدود على بعضها، والتحفتُ بالباقي. أخرجتُ من جيبي حفنة عشب ومضغتها، طراوته ستجعلني أتحمل البعد عن الماء إلى حين، قد تكفيني إن أنهيت التنقيب سريعا وعدت الى النهر (ألم يكن يامولاي بوسعك أن تعلمني الصيد بدلا من إغوائي بركوب النهر؟!). قررت أن أخرس باقي الجوع بالنوم. غبت؛ فجاءني الأرنب الأبيض الضخم يتقافز بين الصروح المتداعية. كان أنفه يرتعش خوفا. نظر إلى أفق بعيد وقال:

ـ «انتبه!»

حين فتحت العين وجلا طاردا النوم، كان صوت العواء تتقاذفه الأصداء والرياح من بعيد بلوغا لأذني (ها أنا ذا يا مولاي قد شحذت بصيرتي، فوجدت الذئب. راضٍ أنت الآن؟). مخيف، شجن، ملتاع كان النداء الحيواني. كنت أرتجف خوفا -برغم بعد الصوت- فأنا لا آمن مقالب الرياح ناقلة الروائح. منذ خروجي من رحم الأرض لم أعرف الخوف إلا الآن؛ فمما قد يخاف آخر البشر؟ من لا يملك شيئا يفقده؟ إنما الآن أملك تلك اللعنة المسماة: أمل!

نهضتُ مسرعا وقد هيأ لي عقلي أن المبيت بداخل البناية المتهدمة ليس بالفكرة السيئة. حملت حاجياتي وسرت متوغلا في عمق الخرائب؛ فربما أجد بناءً أفضل تماسكا وصلاحية للمعيشة. الاختيارات لم تكن كثيرة. سرت

متقدما فيما بدا لي كشارع واحد، نجح بمعجزة في إنقاذ خمس من بناياته. إحداها محترقة، والباقية أسوأ حتى من البناية الأولى. بعدها كانت بنايتان في موضع آخر، وكأنما شارع متقاطع، وعلى بعد منهما، بناية أخيرة في المواجهة. الأخيرة تلك كانت أفضل حالا. تبدو معافاة كأنما لم تمس، وكأن الكارثة لم تمر من هنا. الأغرب أنها كانت منتصبة بطوابقها السبع كاملة فوق الرمال، عكس باقي البنايات المطمور معظمها. والأكثر غرابة أن نوافذ ثاني طوابقها كانت تشع ضوءً (لقد وجدتهم يا مولاي.. الذئب أولا والبشر الآن.. انظر كم باتت بصيرتي حادة بفيض حكمتك!). هرعت أصارعُ نعومة الرمال، محمولا على بساط مغزول من أمل يكاد يطير بي. الرياح الشقية أتت من الخلف تدفع بساطي، وتبصق رمالها في قفاي! مدخل البناية كان يشي بحداثتها -عبر بوابة لها باب حديدي مفتوح- وكأنما وضعت هنا على غفلة من الأزمان (أتراني يا مولاي كنت مغفلا حين ظننتني الوحيد الناجي، وقت أن كان آخرون هنا يشيدون الصروح؟). وقفت أنفض التراب عن شعري وملابسي. ليتني كنت صبرت على تنقيب البناية الأولى عساني وجدتُ ثيابا أخرى سليمة بدلا من تلك البالية. شكلي -بالتأكيد- ليس ملائما لتعارف بين بشر يتلاقون في نهاية الأزمان، ولكن لهفتي على اللقاء كانت أعظم إلحاحا من حسابات اللياقة.

السلم كان ممتدا إلى أعلى، دائري بدرجات مرمرية، ودرابزين أملس رخامي، تحسستُ نعومته وقدمي الأولى تصافح أول درجات العلو. سطعَ الأمل أعلى الدرج بضوء أصفر ناعس، أضاء الدرجات تحتي. رفعت رأسي فوجدت قنديلا مضاء على درابزين الطابق الثاني، تأملت فراغَ ما حوله علني ألمح من أضاءه، فما رأيت. تشجعتُ علما بأن هناك من ينتظرني، وربما يتوق -مثلي- لشجن اللقيا. صعدتُ الدرجات قفزا؛ الطابق كان خاليا، والقنديل وحيدا مثلي، أمام باب خشبي. حملت القنديل وطرقت الباب، انفتح على ضوء

ساطع، أطفأ القنديل المتواضع. ومن بين طبقات من هالات متداخلة، بدت هي. الثوب الأبيض الرقيق، شاكسه الضوء القادم من الخلف، فرسم خيالات لحدود الجسد الممشوق. وهيجان الشعر حول الوجه، داعب هالة ضوء، فامتزجا سحرا للعين (آه يا مولاي لو كنت معي! لعجزت كل الحكمة وحلاوة الكلمات عن الوصف.. ولعرفت أن لبصيرتك المدعاة حدودا تعجز عندها عن إدراك الجمال الأكمل!) . ابتسمَتْ فتوهج الوجه كاشفا أسراره؛ أسوده حول العينين الكحالتين. أزرقه جريئا مندفعا عبر الحدقات. أحمره يشعل شفتين، ويعزلهما عن طهر بياض الخدين. هتفت في حضرتها:

ـ «يا الله!»

فقالت:

ـ «انتظرتك طويلا، فلماذا تأخرت؟»

قلت:

ـ «حسبت الضلع سينشق عنك، فخبرتُ الآن أن ضلعا للكون انشق عنا معا في أزمان ما قبل الإدراك»

ألقت عليّ أتم تعاويذ السحر حين قالت:

ـ «ادخل»

فقلت كما شاءت:

ـ «سمعا»

احتوانا بيت على طرز الأساطير. سجاجيد وطنافس، ومئات الشموع تضيء الروح. فعلمت أني اكتشفت بابا للماضي المسحور. سارت أمامي فاتبعت

خطواتها، حمّلتني ذنبا لأني أضرب بقسوة الأرض التي ما اعتادت غير مرور نسيم قدميها. أشارت إلى الطعام في صينية نحاسية كبيرة، على مائدة قصيرة، وطنافس وثيرة، منقوشة كسوتها، مذهبة، وإبريق ماء فضي، ومبخرة تطاير أريج زهر مجهول.

ـ «أكانت هكذا قبل أن نطرد منها؟»

سألتها، فقالت:

ـ «هنا لا شجرة محرمة. كل القطوف دانية ليديك، حلال لك»

أصابتني اللعنة، فلم أدر كيف تخرج الكلمات من فمي.

ـ «دعيني إذن أقطف من ثمرك؛ فقد صُمتُ طوال دهر»

ضحكت، فصرخت غيرة الرياح بالخارج.

ـ «ثمري أحفظه لك، حتى يحين الوقت»

ثم دعتني للطعام الساخن. جلست فأكلت بشهية الجائع لأزمان (من أين لها يا مولاي بهذا الخير؟ والله طعام كنت قد نسيت مذاقه. دجاج وضأن، وفاكهة.. ليتك كنت معي؛ فهنا قطوف، تنحني لها قطوف حكمتك خجلا).

بعد الأكل صبّت لي من ماء الإبريق المعطر. شربت فثملت، لا من الماء، وإنما من تلامس الكفين لحظة تناول الكأس. تمددتُ على الأبسطة الوثيرة طلبا للنوم. اقتربت مني، مسحت على رأسي وقالت:

ـ «سأحكي لك حدوتة لتنام»

تبسمت كطفل، وأغمضت العين، داعيا سحر صوتها لدخول الروح.

ـ «سأحكي لك عن جدي. كان يعيش هنا، في هذه المدينة قبل الفناء بأوان. كان عظيم المال والجاه، مهيبا، ذا كبرياء. تزوج صغيرا -كما أملت التقاليد

أباه- من ابنة عمه. أحبها وأحبته، وحسنت عشرتهما. أفاض الله عليهما نعما، عدا واحدة تاقا لها بشدة، أعمتهم عما بين أيديهم. فقد حرمهما الله الولد. الجد كان يحب الجدة، فأبى الانصياع لمزيد من إملاءات التقاليد، حتى وإن طلبت هي منه أن يتزوج بأخرى. فالمحب من شيمه الإخلاص -كان- في ذاك الزمان. نذر لله إن وهبه الذرية، أن يبني مسجدا ويقضي ما بقي من عمر خادما له. فلما كانت المشيئة، وقضى الله لهما بالولد -كان هو أبي- أبرّ الجد بقسمه. بنى في المدينة مسجدا لم تر مثله عين من قبل. اكترى له العمارين من بقاع بعيدة، وأحضر من خلف البحر العظيم فنانا في زينة الصروح، ينطق بغير لغتنا. أرسله الجد على نفقته في رحلة جاب بها أعظم بلاد المسلمين، زار المساجد، ودرس عمارتها، وعاد -وقد أسلم لله- ليزين مسجد الجد بما لا عين رأت. ابتاع له الأبسطة من بلاد الفرس، والقناديل الفضية صاغها له أمهر الصناع، فكان متعة للناظرين. وتكفل جدي بما نذره، فكان يوميا، ينظف المسجد، ويلمع حوائطه. ويغير أبسطته مرة أسبوعيا، رافضا أن يستعين بمساعدة، سوى من ابنه الوحيد لما اشتد عوده. وكان يصعد المئذنة العالية خمس مرات فيؤذن في الناس بصوت جهير، ليس حلو النبرات، ولكنه كاف لاستدعاء المصلين من آخر المدينة. ثم يصلي بهم إماما في كل الصلوات؛ ليس أكثرهم حفظا للقرآن، ولكن الصف الأول لا يخلو من الحافظين، فيردونه حين الخطأ، أو ينبهونه إذا ما زاد ركعة، أو انتقص ركعة. ويهزون رؤوسهم تفهما -أو إذعانا لهيبته- كلما ردد عليهم الحديث الشريف: «لا يُؤَم الرجل في بيته». الصرح كان مثاليا، عدا أن الجد حين بناه، اختار له موضعا شاغرا أمام الكنيسة الكبيرة. لم يعترض أحد على البناء، بل وجاء كبير القساوسة مهنئا الجد، في افتتاح المسجد. الكل بدا سعيدا، ولكن حين استدعى القس البناء لإعلاء البرج، أدرك الجد أن علو البرج فوق المئذنة، هو الهدف غير المعلن. لم يكن الوقت ناصره، إذا ما هو استدعى البنائين الأجانب مرة أخرى، لذا أرسل في طلب بنّاء المدينة، فعاد الرسول ليخبره أن

البنّاء مشغول الآن بتعلية برج الكنيسة. فاضطر الجد لانتظاره حتى يتم عمله. في النهاية؛ الجد والبنّاء تقابلا حين حضرا الاحتفال بتطوير الكنيسة، واتفقا على العمل. وفي صباح اليوم التالي، استيقظ القساوسة ليجدوا أن مئذنة المسجد قد زادت طولا عن برجهم، بعد أن علاها البناء الماهر بليل، كما اتفق مع الجد. استدعاه كبير القساوسة، وطلب منه زيادة طول البرج مرة ثانية. اغتاظ الجد، وأقسم بحياة وحيده -أبي- ألا يعلو برج الكنيسة فوق مئذنة الجامع، طالما أنه حي يرزق. استمرت حرب الارتفاعات بينهما، حتى أنبأهما البناء باعتزاله العمل؛ فقد اكتفى بثروة جمعها تغنيه عن الشقاء حتى يأتيه الموت. وقتها كانت المئذنة قد بلغت ارتفاعا جعل صعودها يستغرق ساعة من الوقت. في حين طال برج الكنيسة حتى صدم السحاب، فاخترقه. لم يدم الأمر طويلا؛ فقد انهار المسجد والكنيسة فجر ذات يوم. كان الجد يبكي صرحه، وابنه يواسيه. وكان القس يبكي صرحه، وحوله تلاميذه، وراهبات سكنّ الكنيسة لفترة.

في هذا المقام، وفي غفلة من الحضور المكلوم كل في مصيبته. تراسلت النظرات، بين الشاب الجميل الذي هو أبي، وراهبة صغيرة جميلة، زرقاء العينين. اشتعل بينهما شيء، دفع الشاب قليل الخبرة، لمبيت الليالي أمام شرفات البيت الذي اتخذه القساوسة مقرا مؤقتا، عساه يفوز بلمحة منها. حين وشى به لأبيه من وشى، ثار الجد؛ ضربه وحبسه لأيام بلا طعام؛ فكيف لابن الرجل الورع التقي، أن يقع في غرام راهبة. حين هدأ الجد، حمل الابن في قافلة، وأخذه لزيارة بيت الله الحرام. عاد الابن من الحج مستسلما، مذعنا، فقبل لفوره بزوجة اختارها له الأب. كانت هذه الزوجة هي أمي. وكان جدي وأبي على جهل بكونها ساحرة...»

فكان هذا آخر ما سمعته، حين أدركني النوم.

صحوتُ فكانت الشموع لم تزل تضيء المكان، والظلام يعانق النافذة. وكانت

هي وقد تبدلت نارا بعد صفاء. الثوب الأحمر الناطق غواية، والشعر الأحمر الثائر (آاااااااه يا مولاي.. سحقا للحكمة، حين يجد المشتاق للاحتراق، نارها!). سألتها:

ـ «كم لبثت؟»

فأجابت:

ـ «بعض يوم»

ضحكت وقلت:

ـ «أكمثل (بعض يوم) أهل الكهف نمت؟»

فتبسمت قائلة:

ـ «بل كمثل (بعض يوم) المشتاق لضمة من أمن»

كانت الرياح تطرق زجاج النافذة المغلق، تدعوني؛ فتجاهلتها. وحين جاءتني الفكرة في غياب السكرة، وجدتني مفعما بالحيرة، فسألت:

ـ «من أنتِ؟ ومن أين لك بكل هذا؟»

ضحكت فتطاول لهب الشموع.

ـ «للمعرفة أوان، فلا تتعجله»

اقتربت مني، فلفحتني نارها، فابتسمَتْ، فتفاديتُ برقها بإسدال الجفنين، فقالت:

ـ «المهم أنني وجدتك بعد عناء انتظار»

سألتها:

ـ «كيف علمتِ بقدومي؟»

بدلال قالت:

ـ «رأيتك في كرتي المسحورة»

وجدت الجذع يميل تأثرا، والشفاه تسعى للقاء الشفاه، فدفعتني بصد رقيق، وقالت:

ـ «لمنتهى الاتصال أوان، فلا تتعجله»

فقلت:

ـ «أنا لا أطمع في غير مبتداه»

فضحكت..

ـ «كثيرٌ هو ما تجهله عني، وكثيرٌ هو ما أجهله عنك. فدعنا نتكاشف، ونجرد أرواحنا أولا من أستارها»

قلت:

ـ «حدثيني إذا»

فقالت:

ـ « سأحكي لك حدوتة أخرى حين النوم، وفي كل حدوتة، تكتشف جزءًا»

قلت:

ـ «سأنام الآن لترضي»

ضحكت، فعوت الرياح بالخارج.

ـ «لا تفسد متعة اللعب. الليلة دورك. أنت ستحكي لي عنك حكاية لأنام»

(المدد يا مولاي.. يا من تركتني على الأمل الحارق.. ماذا أقول أنا الوضيع ابن الوضيع، لأطرب الساحرة بنت الساحرة؟ وهل في سيرتي غير تباريح بؤس

وامتهان؟)

أكلنا -داعبتني بوضع البقلاوة في فمي بيدها، فداعبتها بلعق قطرة من شهد الأنامل- وشربنا الماء العطر، فثملتُ سحرا من عينيها. تمدد جسدها، فانكشفت أسرار أمام عيني، وقاومت غواية ملاك الحب، وفيا لوعدي لها؛ فلقطف الثمار أوان لم يأت بعد. قالت والأزرق يتوارى رويدا رويدا خلف الهدب:

ـ «احك لي حكاية»

تاهت من رأسي حكايات عن بطولات وملاحم كاذبة أعددتها، فلم أنطق غير صدقا:

ـ «يحكى أن جد جد جد أبي هو أول من هبط إلى المنجم. كانت الأرض ملكه والجبال، والخير المكنون بباطنها. كان يكسر أحجار الجبل بمعول في يده، لا عون له إلا من جهد ذراعيه، وقوة إيمانه برزق مخبوء في جوف الجبل لأزمان ينتظره -هو بالذات- لإخراجه. فكان يعيش في وسع من نعم الرحمن. يمتلك مناجم في الجبال بلا عدد، حفرها بيديه. بقي إلى آخر عمره القصير يعمل وحده. ويحصد على قدر قوته. فلما مات -مجهدا تعبا- وكان أبناؤه الذكور يداعبون -ما زالوا- زغبا ناعما ينمو أسفل الأنوف. قال أكبرهم:

«ألم تروا ما حل بأبيكم لطول الشقاء؟! والله لن أكون مثله، أنا الثري المنعم مالك الجبل وباطنه»

تبعه إخوته؛ حين جاء إلى قريتهم رجل يرفل في حرير، في عربة مطعمة بالنفائس، تجرها ستة خيول مختالة. وقف في الطريق يسأل عن بيت الأيتام. منح من دله قطعة ذهبية، فتسابق الناس إلى توقيره وتقبيل الخواتم الكبيرة حول اكتناز أصابعه. فألقى القطع الذهبية في الهواء دفقات على

رؤوس الرجال. ذهب الرجل للأيتام وحدثهم عن رغبة في اكتراء المناجم منهم نظير أجر ضخم سنوي. قال لهم:

«حقيق بكم -وأنتم أصحاب رأس المال- أن تجلسوا في بيوتكم فاتحين خزائنكم للخير الوفير الآتي بلا جهد»

سعدوا بما سمعوا، واقتسمت خيالاتهم فيما بينهم القطع الذهبية التي جرى بها لسان الرجل. وقعوا العقود فما انتبهوا -لفرحتهم بالصرة الرنانة فوق الأوراق- للأمد الطويل للاتفاق. عاد الرجل إلى القرية، فكان الرجال قد هجروا حقولهم وأعمالهم وتحلقوا حول عربته انتظارًا لدفقات أخرى من القطع الذهبية. ولكن الرجل خطب فيهم بوعد بقطعة ذهبية شهرية لمن يأتي للعمل في مناجمه، فامتدت أمامه صفوفٌ من راغبي العمل. قادهم جميعا إلى المناجم فبدؤوا عهدا جديدا من أعمال التنقيب. ازدادت خزائن الرجل انتفاخا، فما كان ما يمنح للعمال من أجر، أو ما يعطيه لأجدادي كإيجار، سوى نقطة في سيل الخير الهابط من السماء. توالت على أجدادي أزمان؛ مات منهم من مات، وولد من ولد. ما عادت قيمة الإيجار تكفي لسد الرمق. وقلل تزاحم الرجال على العمل -بما يزيد عن الحاجة- من أجر العامل، فبات لا يكفي لتوفير أركان حياة متواضعة. ولكن الفقر جعل صفوف الراغبين في العمل لا تنقطع برغم هذا. واحد من أجدادي كان هو أول من تجرأ وخاطب الرجل بضرورة زيادة الإيجار. الرجل تخطى العام المئة ولم يزل يحيا بكامل العافية. أخرج للجد العقد الموقع فلم يستطع معه مجادلة. حاول استعطافه بعسر الأحوال، وكثير الأولاد المفتوحة أفواههم. فأجابه بأن أمامهم فرصة لزيادة الدخل إذا هو أحضر أولاده للعمل بالمناجم، فيغنم -بجوار الإيجار- أجورهم كعاملين. وافق الجد فكانت عودة أسلافي إلى المناجم -كعاملين بعد أن كانوا ملاكا لخيراتها- نتوارث العمل جيلا بعد جيل، وابنا بعد ابن، فكنت أنا الأخير»

رغبتُ في التوقف عن الحكي إلى هذا الحد، ولو مؤقتا. فوجدتها -وكأنما أطاعت رغبتي غير المعلنة- منتظمة الأنفاس، في عمق النوم.

صحوت فكان الليل كذلك. حزنت لأني لم أر الأم -الشمس- ليومين متتالين. أتراها سألت عني؟ قمتُ إلى النافذة، فصرخت الرياح. كان في صراخها فرحة استشعرتها، ففتحت النافذة على لهفة طارئة أصابتني. بصقت الرياح رملا في وجهي. فأغلقت النافذة وأنا ألعنها. ضحكت الجميلة مستمتعة. استدرتُ فوجدتها تتابع الحدث. قالت:

ـ «اتبعني»

غابت في عمق المكان فتبعتها. فتحت حجرة ففاض عنها البخار الساخن. كان في منتصف الحجرة حوض استحمام، لمائه رائحة الياسمين. ناولتني منشفة مطوية وثيابًا بدت جديدة. وغادرت مغلقة الباب خلفها. وكأنني في حلم؛ خلعت الثياب وغطست في دفء اشتاق له الجسد، فتصاعد الزبد العطر يضمني. لفرط الاسترخاء غفوت. فأخرج الأرنب الأبيض الضخم من الماء رأسه. كان حزينا مهموما. هز الرأس أسفا، وقال:

ـ «افتح عينيك»

فتحتُ عيني، فلم أر سوى عسر الرؤية، في بخار الماء النقي. نظفت الجسد جيدا بالصابون وقطعة الليف، فبدا لي أنني أعيد اكتشاف جلدي بعد طول افتراق. غسلت الشعر الذي يبس لطول المزج بالرياح والرمال. خرجتُ من الماء مستعيدا بكارة الإنسان، وكأنما وُلدت للحظتي. جففت الجسد وارتديت الثياب، فكان جلبابا من حرير أبيض. خرجت من الحمام مزهوا بنفسي، وما طرأ عليّ (آه يا مولاي! وحتى في سالف الأزمان.. وما قبل الفناء.. ما عرفت

نظافة كتلك.. ما عرفت غير تراب المناجم ورائحة طين الأرض والحجارة المنسية). درت في المكان للمرة الأولى، فكان خاويا. كنت أبحث عنها، مشتاقًا لرؤية ذاتي الجديدة في عينيها، فما وجدتها. البيت كبير -كما بدا لي- فربما إن ناديتها، ولكني لا أعرف لها اسما بعد. أبواب الحجرات مفتوحة أمامي؛ تجولت بينها، فما أسرني غير حجرة حمراء، بفراش كبير عال، مسدل عليه ستار وردي شفاف؛ أريج البخور يفوح مسكرا في الحجرة، وإضاءة شموع يشع لهبها بهالات حمراء. وكأنما معدة هي لاصطياد ليلة تمام الوصال (قفز قلبي بين الضلوع يا مولاي.. أريدها منذ انفجار الكون الأول.. منذ أن دنس الإنسان -الأب- تراب الأرض بالخطوة الأولى.. أريدها يا مولاي، فتذبحني هي!).

ـ «أعجبتك الحجرة؟»

قالت، فكانت ورائي دون أن أدرك قدومها. أجبتها:

ـ «تعجبني خيالات تربط عقلي بتكوينها»

ضحكت تيها، وقالت وهي تغلق بابها:

ـ «سيحين الوقت حين تتم المعرفة»

قادتني إلى حجرة الطعام، فكانت مائدتها عامرة كالمعتاد. وقفت تتأملني في ضوء الحجرة الأكثر سطوعا، وقالت:

ـ «أنت جميل بحق يا مولاي»

ثم مالت تروي خدي بماء شفتيها. تركتني ممسوسا بفتنتها، وقالت ضاحكة:

ـ «لا تطمع بالمزيد، إلا حين أقرر أنا»

ثم أجلستني وأنا كالمصعوق، وبدأت تطعمني في فمي (المدد يا مولاي..

رقيقة هي حتى إنني ألوم اشتهائي لها؛ فكيف لكائن نوراني مثلها أن يزور خيالات وضيع محروم مثلي؟!). عبسَت، فانطفأت في روحي أنوار، فقالت:

ـ «يا مولاي لا تقس على نفسك؛ فاشتهاؤك لي قدرك. وانتظاري لك قدري»

سألتها:

ـ «أتريدينني كما أريدك؟»

قالت، وانزلاق دمعة من مقلتها يذبحني:

ـ «ولِمَ تشتهيني، ولِمَ أشتهيك؟»

صمتت، فلم أبلغ مرادها، فواصلت:

ـ «ألأنني آخر أنثى -ربما- تشتهيني؟ أم لأنك آخر الرجال -ربما- أشتهيك؟ أين يقع الحب على خارطة روحينا؟»

زادتني كلماتها عذابا، فحملت هما فوق هم، وكدت أصارحها، لولا أن أدركتني وقد استحالت دمعتها إشراق ابتسامة.

ـ «فلتنم الآن. فقد آن أوان الحكاية»

تمددت، وأسلمت الروح لها، فبدأت تحكي:

ـ «الجد لم يلتفت لمسجده المهدم مرة أخرى؛ فقد نذر إلى الله ألا يعيد بناءه إلا إذا رزقه الله بحفيد ذكر ينقذ اسمه من الفناء. لهفته على الولد لم تكن سبب كراهية أمي له؛ فقد زرعت الكراهية في نفسها منذ زمن؛ ربما لأن الجد كان تابعا مخلصا لله، وأمي كانت -مثل أمها- على دين آباء السحر، ولكنها لم تعلن عن هذا طبعا، فتخسر زوجها الذي أحبته. برغم أن زوجها -أبي- لم يحبها قط، لم يعاملها -لحسن خلقه- معاملة سيئة، ولكنه كثيرا ما كان يهملها، ولا يقضي حتى في بيته إلا القليل من يومه؛ ففي أعماقه لم يزل

مسكونا بفتنة الراهبة. وعندما أخبرها واش أن الزوج لم يزل يمر أمام شرفات الدير بليل، عساه يلمح من الحبيبة طرفا، شكته لأمها. الأم لم تعرف سوى السحر دربا، فأمرت ابنتها أن تسحر الزوج بمحبتها، ولكن أمي أبت أن تعيش مع رجل مسحور. حين حملت أمي وجدت من أبي فرحة، وبعض اهتمام، فسعدت به، فلما وضعتها أنثى، سحرت أمي الطبيعة، فصبغت الوليدة بملامح من الراهبة فاتنة الأب، زرقة في العينين، وحمار في الشفتين، ودقة في الأنف، فكانت سحرا لأبيها. برغم سخط الجد الذي كان يمني النفس بالولد، أحب أبي ابنته، وربط قلبه بها، فأنسته معشوقته المستحيلة، وزرعت في قلبه لأمي شيئا من محبة وتقدير. فلما كانت البنت الثانية، جعلتها أمي تشبه أختها، فكانا معا جنونا لأبي، وجنونا للجد كذلك، الذي أمر ابنه بالزواج بأخرى فورا. ولكن أبي أعاد سيرة أبيه، ورفض أن يتزوج بثانية، معلنا أمام أبيه، وأمي -للمرة الأولى- حبه لزوجته. طارت أمي فرحا، فكانت لها أعظم أعمال سحرها، أن تدفع رجلها لحبها بلا سحر. حدثتني أمي أنها كانت تطلب في صلواتها السرية لآباء السحر، ألا تأتي بولد، نكاية في حميها، فكانت البنت الثالثة. مات الجد حسرة، فما ترك وراءه اسما للخلود، ولا حتى المسجد الذي نذره لله. في حين كانت الفرحة عظيمة لجدتي -أم الأم- فقد وجدت في البنات الثلاث -على كراهة من أمي- امتدادا لميراث السحر، وضمانا ألا ينقطع نسل الساحرات في العائلة».

كان اليوم التالي -كما سابقيه- ليلا بلا نهار. وقفت أمام النافذة، أتأمل الصروح المهدمة، المنتصبة في الظلام كأشباح. وضعت يدها على كتفي، دغدغني عطرها، فأصابني مزيد من الشجن. قالت:

- «مولاي، ما بك؟»

فأجبتها:

ـ «أفتقد الأم -الشمس- كثيرا. منذ الفناء، لم أغب عنها، أو تغب عني لمثل هذا الوقت»

قالت وفي صوتها انكسار حزن:

ـ «تفتقدها وأنا معك؟»

فقلت:

ـ «في القلب متسعٌ لألوان المحبة. وما محبتي لأم، تقارن بعشقي لك. فلعشق كل منكما حلاوته ومرارته»

قالت:

ـ «ظننتني سألهيك عن العالم؟»

فقلت:

ـ «أنتِ العالم، وهي نوره»

وضعت رأسها على كتفي، في صوتها دلال أسيان.

ـ «ربما محبتك لي لن تكتمل إلا باكتمال وصالنا»

قلت:

ـ «في اشتهائي لك ما يحزنني. فأنا...»

قاطعتني ضحكتها.

ـ «لا تفسد اللعبة. لا تخبرني حتى يحين وقت النوم»

وكما كل ليلة، حان وقت النوم سريعا. أكلنا، وشربنا، وتضاحكنا. وحين تمددت للنوم، فتحْتُ القلب على مصراعيه، أمام انسدال أهدابها. وقلت كما

شاء لي القدر:

ـ «كان هناك ولد -الذي هو أنا- لم ينل من الدنيا حظا. ولدته أمه في باطن الجبل، كانت تحمل إلى زوجها غداءه حين أتاها المخاض. صرخة خروج الولد إلى الدنيا رددت صداها جدران المنجم الخانقة، فكانت هي دنياه وحياته. يقولون إن الولد -الذي هو أنا- أتى إلى الدنيا بعينين مفتوحتين، فكان ينظر إلى الجدران الحجرية ويبتسم. لما استوى طفلا على ساقيه، حمله أبوه عائدا إلى الجبل. قبل فطامه أمسك بالمعول للمرة الأولى، وبدأ تلقي علم التنقيب. الولد -الذي هو أنا- لم يكن صالحا أو طالحا. لم يحيا حياة كالفتيان. لم تراوده أحلام كالفتيان. لم تغوه شهوات كالفتيان. قبل نمو الشعر على ساعديه، كان يكسر بهما أحجار الجبل، وقد صار عاملا في المناجم، يتقاضى أجرا يسد به بعضا من جوع أبويه وإخوته. يوم أن فاضت عنه الشهوة قسرا، وتلوث ثوبه بماء دافق لأول مرة، كان في الجبل، حين غفا تعبا. خاف أن يخبر بهذا أحدا؛ فقد كان بين الرجال صغيرا، وخاف أن يخبرهم فيسخروا منه، فقد ظنه بولا لاإراديا كالأطفال، فكان يخفي البقعة على السروال بيديه. لم يع ما حدث له إلا عندما وجد هياجا يصيبه لأحاديث عمال المناجم الخشنة البذيئة عن النساء، فكان ما عرفه عنهن من حكايات التباهي الخرقاء، يخالف الطبيعة. لما لاحظت أم الولد -الذي هو أنا- ما يصيب ابنها في نومه، تهامست مع الأب، فاستدعاه؛ تأمل شارب ابنه الذي ارتسم سوادا صادما فوق الشفتين، فأدرك أن الأم محقة. كان الخوف أن يخسرا المال القليل الذي يضخه الولد في البيت، فتصارح معه والده، لما سأله:

«يا بني، ما أكثر ما تتوق له نفسك؟»

أجاب الابن، بعد خجل:

«الزواج»

كان ما خشي الأب سماعه، ولكنه أعد له ردا:

«يا بني، نحن قوم فقراء، محتاجون، والزواج كثير التكاليف والنفقات، فما لنا طاقة به»

تأسف الولد -الذي هو أنا- حتى سالت منه دمعة، فأدركه الأب:

«سأعطيك مالا، هو كل ما أقدر عليه، قليل هو لا يكفي لتكاليف شيء من الزواج، ولكنه يكفي لكي تجد لك خليلة لليلة، في بيت للهوى»

تعجب الولد، ولكنه قبل الحل الذي بدا وحيدا لعلاج شهوته. الخليلة التي اختارتها للولد نقوده القليلة، كانت امرأة كبيرة في السن، منهكة، ومنتهكة. بجسدها تهدلات، ودهون، وشعيرات بارزة أهملت تنظيفها، ولكن الولد لم يكن يبالي أمام انفلات شهوته؛ كل ما خبره عن المرأة لم يكن سوى حكايات فجة من رفقاء المنجم، يدعمون بها مظاهر الرجولة والقوة. اجتر حكاياتهم تلك الليلة، فكان خشنا، جلفا، حتى المرأة المحترفة لم تتحمله، فدفعته عنها وصرخت فيه، فانفلت عنها قسرًا قبل أن يشبعه اللقاء، وانطلق يركض أمام ثورة المرأة، التي شيعته إلى باب الدار بالسباب، والحاضرون يضحكون منه.

أصاب الغم الولد -الذي هو أنا- فكره النساء وسيرتهن. وتعلم أن يحبس شهوته بعيدا عن أسوار الفؤاد والعقل. والآن، وقد بات صومه إجباريا بعد فناء البشر، عاد يحن من جديد للمرأة، ويندم لأنه لم يحاول الاقتراب منهن ثانية. فكيف به إذا ما قابل امرأة وحيدة بين الخراب. جميلة، شهية، فكيف لا تتحرك فيه الشهوة المنسية. ولكن الولد -الذي هو أنا- يقتله الذنب؛ فعساه بهذا الاشتهاء، يهين السيدة التي أنقذته، وآوته. ولعل ما يشعر به من عشق لها، ليس أكثر من ستار للرغبة. ولكن كيف له أن يعلم الحقيقة!؟»

فتحت جفنيها عن العينين الناعستين، وكنت أظنها نامت. ابتسمت، وقالت:

ـ «يا مولاي. أنثاك أيضا تشتهيك، ولا يهمها السبب؛ فأنا وأنت هنا الآن، وفي هذا كفايتنا»

عادت تسبل جفنيها -وقلبي يَجِفُّ- وتقول:

ـ «غدا ربما سيكون حدا لعذابنا، وربما -وهذا ما أخشاه- يكون مبتدأ لعذاب جديد»

لم أفهم ما تقول، ولكنها نامت قبل أن أطلب إيضاحا.

قمتُ إلى النافذة، وقد عزمتُ ألا أنام قبل أن أدرك شروق الأم -الشمس- عساني أسألها غفرانا، فتغفر لي (طال المقام بي يا مولاي كالمعلق.. فلا أنا أطول جميلتي، ولا أنا أرى أمي -الشمس- ولا ألاعب صديقتي الرياح، وبعيد حتى عن أبي -الجبل. أتراك حين سرقت أشيائي، كنت تقودني إلى هنا؟ أظلمتك أنا؟ ففي فعلك حكمة خفية ربما. المدد يا مولاي؛ فما عاد بي احتمال).

مرت أزمان ولم تشرق الشمس. ذهلت، وغضبت، في البيت هنا أمور خارقة لا علم لي بها. وهي لا تريد أن تحدثني سوى غموضا. عزمت أن أوقظها، لتصارحني الآن، أو ليكن رحيلي دون المعرفة. لحظتها عبر الزجاج المغلق صوت العواء المخيف. كان قريبا فارتجفت. وجدتها بجواري تقول:

ـ «إنه ذئب الصحراء»

قلت:

ـ «أعلم، حدثني مولاي عنه. ولكن صوته الليلة قريب»

دنت أكثر من زجاج النافذة. وضعت طرف إصبع عليه مشيرة.

ـ «ها هو»

دنوت بدوري. قرّبت عيني. عبرت الزجاج وعتمة المساء، فرأيت الجسد الضخم يسير متمهلا بين الصروح المتهدمة. قالت هي:

ـ «أليس جميلا؟»

قلت:

ـ «بل قولي: مخيفا»

فقالت:

ـ «ألا ترى في ضخامة جسده، وقوة بدنه، وسواد فرائه، جاذبية ساحرة؟»

سألتها:

ـ «أتحبين الوحوش؟»

فأجابت:

ـ «أحب شجن هذا الوحش تحديدا»

تعالى عواء الذئب، وكأنما يجيب إطراءها بالشكر، فضحكت. فتحت زجاج النافذة غير عابئة بقلقي، ونادته:

ـ «يا أيها الوحش العظيم. لا أحد لك هنا. اخرج إلى الصحراء، واصل بحثك؛ فلربما وجدت لك خليلا، كما وجدت أنا»

ضحكت كطفلة، وهي تتابع الذئب يتوأد مبتعدا، حتى غاب عن أنظارنا في عمق الصحراء. أغلقت النافذة، ابتعدتُ عنها لخطوتين، وقد عاودني العزم، فسألتها:

ـ «أين الشمس؟»

تأملتني داهشة، فسألتها كذلك:

ـ «كيف أطاعك الذئب؟»

كان سيل الحيرة يأبى أن تنقطع تساؤلاته.

ـ «من أنت؟ من أين لك بكل هذا؟»

ابتسمت مدارية ارتباكا، وقالت:

ـ «أنت تخافني؟!»

لم أجب، فعاودَتْ:

ـ «أتخافني حقا يا مولاي؟»

أجبتها:

ـ «أنا لا أبغي سوى الفهم»

فقالت:

ـ «ستعرف كل شيء في حكاية الليلة»

غضبت، فصحت:

ـ «لا مزيد من اللعب. أريد أن أعرف كل شيء الآن، وإلا ففراق بيننا»

جرت على خديها دموعٌ، فلم أبالِ. طويت القلب على جرحه، فلا يظهر له نزف، ورسمت وجه الجاد منتظرا أن تنطق. فلما لم تجد مني إعلانا لشفقة، جلست منكسرة، وأكملت حكايتها:

ـ «الجدة أرادت أن تنقل ميراث السحر لحفيداتها الثلاث، ولكن أمي أبت. الجدة كان لديها من الألاعيب ما لا تجف له منابع، وأمي لم تكن لتماثلها حيلة. سحرت الجدة الحفيدات باتباعها، فتمردن على الأم. في لحظة يأس

منها صارحت زوجها بكل شيء، عساه أن ينقذ البنات. غضب أبي غضبا عظيما؛ كانت خديعة لا يمكنه غفرانها. رحمة منه بأم بناته، لم يشأ أن يفضحها، أو يقم عليها حد الساحرة في دينه، فطلقها وكفى، وتبرأ من بناتها. عادت أمي التي خسرت كل شيء لأمها. لم تعد قادرة على المقاومة، فوقفت تتفرج على الجدة وهي تنقل سحرها للبنات الثلاث»

صمتت وقد غلبها شجن الذكرى. طال صمتها فظننتها فرغت من حكايتها. سألتها:

ـ «أساحرة أنت حقا؟»

هزت الرأس وقالت:

ـ «ألا يفسر لك هذا كل شيء؟ كيف نجوت. وكيف بنيت هذا البيت. ومن أين لي بكامل متطلبات المعيشة تلك. وكيف جعلت الذئب يطيعني»

قلت مكملا بإحساس طعنة ما في ظهري:

ـ «وكيف سحرت الشمس كذلك»

بكت، وقالت:

ـ «لا تزد همي. فأنت لم تطلع بعد على مأساتي»

ثم أشاحت بيد في الهواء صوب النافذة، فأضاءت الأم -الشمس- السماء، وتسللت من النافذة، فرحة بحرية بعد أسر، تسعى لعناق دافئ معي.

ـ «أنا لم أرد أن أمنع عنك الشمس. فقط أردتُ أن تكون لي بكامل روحك مؤقتا. فما سأحمله لك من عبء، قد يحتاج كل موضع لمحبة في قلبك»

كان علي أن أصل لآخر مراتب الفهم الآن، فسألتها:

ـ «عن أي عبء تتحدثين؟»

تنهدت، فانسحب جزء من وهج الشمس، خجلا من حرارة حزنها. ثم قالت:

ـ «الأم مرضت حزنا، وقد فقدت كل شيء. الزوج والحبيب، ومصيرا أفضل كانت تحلم به لبناتها من مصير الساحرات، المحكومات دوما بالاختباء والنبذ بعيدا عن البشر الكارهين. ولكن الأم أدركت من تجربتها أن الحب هو قوة أكبر من أية قوة، وحتى من السحر، فوضعت قبل موتها تعويذة على البنات الثلاث، فكل واحدة منهن ستفقد قدرات سحرها، لحظة أن تفقد عذريتها. فحكمت على بناتها أن تصلن حتما إلى مرحلة اختيار، بين سحرهن، وبين تمام الحب، بالوصال الأبدي مع الحبيب. أتراك فهمت الآن مأزقنا؟»

(المدد يا مولاي.. المدد!)

قلت وقد حط حمل كالجبل على كتفي:

ـ «الآن أنتِ أمام اختيارك الأصعب»

فقالت:

ـ «لا، بل أنت أمام اختيارك الأصعب»

نظرت إليها وبالعينين سؤال، فقالت:

ـ «هذا هو جواب حيرتك. الآن ستعرف إن كان ما بك تجاهي حبًا، أم محض رغبة. إن كان حبا، فستعرف كيف تختار. فإن لم يكن، فلست مجبراً على مصاحبتي، سأساعدك على بناء الفلك، ولترحل إلى شمال النهر، لعلك واجد مدينتك المزعومة»

دهشت لمعرفتها بأمر الفلك والمدينة، فقالت وكأنما قرأت في وجهي الدهشة:

ـ «أنا ساحرة. لا تنس»

(آه من وجع الحيرة يا مولاي!)

قامت فدنت مني. لفحني النفس الثائر. أمسكت كفي، فمالت حيرتي إلى كفتها. قالت وهي تجذبني:

ـ «تعال معي. ستواجه الآن امتحانك»

أنا التابع لها، سرت وراءها إلى الحجرة المعدة للالتقاء. كانت شموعها لم تزل متوهجة بالأحمر، وعطر بخورها لم يزل نافذا إلى الروح. تركتني وتقدمت من الفراش. أزاحت ستائره الوردية، فانكشف عش العاشقين وثيرا ناعما. قالت:

ـ «عليك أن تختار الآن. إن كنت لم تزل تريدني، فهي تلك اللحظة التي انتظرناها معا. ولكن بعدها لن أعود ساحرة. لن تحيا حياتي بعد اليوم، لا ماء دافئ، ولا صابون عطر، لا بخور حلو الرائحة، ولا طعام شهي. لن تعود أمامنا من حياة نحياها، سوى تلك التي خبرتها أنت منذ الفناء؛ نطارد الماء، ونقتات على صيد الأرانب الشحيح، أو الكلأ المر. فإن لم تستطع عودة لتلك الحياة، فيمكنك أن تئد شهوتك للأبد، وتختار الحياة معي، بلا اتصال رجل بأنثاه. فإن كانت شهوتك أقوى، فلم يزل لديك حل ثالث، بخوض مغامرة ركوب البحر وحدك. فقد تجد البشر، وعندهم حل لاشتعال الرغبة»

عندما انتهت، حرّكت بأصابعها في الكتفين موضعا مدروسا لتعلق الثوب على جسدها، فانزلق الثوب، ولفحتني من هناك عاصفة نار؛ لهب ودخان وحرارة أحرقت وجهي وصدري وأطراف روحي الممدودة -مع النظرات- نحوها (المدد يا مولاي.. لقد صعبت الساحرة علي الامتحان!). استدارت فانتشر في المكان عبير من جسدها، هزم رائحة البخور. مال جذعها فوق الفراش، فانفجرت في قلب العاصفة براكين، وضربت صحرائي زلازل كادت تفتت ما بقي من جسدي. صعدت متمايلة، ثم استرخت في رقدتها وعيناها

تدعوان عيني، وتلقيان علي قذائف حممهما (ما أنا فاعل يا مولاي؟).

قالت، فكان في صوتها سهام للقلب:

ـ «اختر الآن»

(المدد يا مولاي.. المدد!)

«لم يزل عند نهايات الكون
متسع شاسع للحب»

صحوتُ من نومي على صوت ندائه. عبر النافذة رأيته يرعى حول البيت؛ الأرنب الأبيض الضخم. أقسمتُ أن أناله هذه المرة. حملت القوس والسهام وخرجت سعيا. لما تجليت له، هرب. طاردته فكانت السرعتان متساويتين. طاشت عنه سهامي، فاكتمل له المهرب حتى بلغ الجبل الصخري الصغير. دار حوله نصف دورة، فاندس جسده الضخم في الشق الذي كنت أحتمي به يوما من حماقات الرياح. احتواه الشق الصغير حتى أخفاه، فتبعته. اجتزت الشق إلى ظلام متسع داخل الجبل. رفعت البصر، فرأيت القلب الأحمر النابض يتدلى من السقف. أطلقت سهما عليه، فأصبته. صرخ الجبل، فخر دكا! وجدتني في عراء جديد، والرياح تزغرد فرحة، بينما وجه الأرنب الأبيض انكشف أمامي حزينا، تفجرت عيناه دمعا، وصرخ:

- «يا أحمق، لِمَ؟»

استيقظت فكانت هي نائمة لم تزل. قبلت جبينها، فتململت في نومها، فابتسمت. نهضت عن الفراش، وفي صدري شوقٌ عظيمٌ للأب -الجبل.

علقت القوس والكنانة في كتف، والجراب القماشي في كتف ثان. وقبضت على الرمح القوي. دسست الخارطة في جيبي، وغادرت البيت (تعلمت يا مولاي -منذ أن شحذت بصيرتي- أن أراقب مواضع الخطوات، حذرا للقاء محتمل مع ذئب الصحراء. فلا يغادر سلاحي يدي). مسحتُ أركان منطقة الخرائب، فتأكدت أن الذئب ليس هنا اليوم. جاءتني الرياح تسعى. تمسحت في وجهي، فضحكت. رسمتُ لها على الأرض -بسن الرمح- دائرة، فخطفتها وابتعدت صارخة فرحة. صعدتُ البناء المتهدم المنشود، وصولا إلى الطابق المنشود، كما تقول الخارطة. كانت الفوضى تسكنه كغيره من الطوابق، وبقايا الدور المهدمة. أعلم كما حدثتني الخارطة أنني سأجده ها

هنا في مكان ما. رفعت بعض الحطام ونقبت تحته. لم يطل بي التنقيب، فوجدت طرف الحبل. سحبته، متتبعا امتداده، حتى كشفته بالكامل، فكان طويلا. لففته على كف يدي، فصنعت منه كرة، فدسستها في الجراب القماشي. بعدها اصطفيت بعضا من حطام الأخشاب الصغير، يصلح للاشتعال كحطب، ووضعتهم في الجراب مع الحبل. غادرت تلك البناية إلى واحدة أخرى. الخارطة أخبرتني أنني واجدٌ هنا المزيد من الألواح الخشبية الضخمة، والأوتاد المتينة، الصالحة للاستخدام في البناء. نقلت منها الكثير وكومتها على الرمال في الخارج. ثم سحبتها إلى داخل البناية التي نسكنها، ووضعتها مع الباقين، فصار لدينا مخزون جيد من أخشاب البناء. ومازال هناك الكثير بين الخرائب، كما تؤكد الخارطة المسحورة. ثم تفقدت أوعية الماء، فوجدت كثيرا منها يطالعني فارغا. أخرجت لوح النقل -وهو لوح عريض، صنعته من ربط الأخشاب متجاورة، ثم ربطته بحبل يمتد إلى الكتف لأجره منه- ورصصت عليه الأوعية الفارغة، ثم جررته في رحلة طويلة إلى النهر. ملأت الأوعية بالماء، ثم شرعت في عودة أكثر طولا من الذهاب، بفعل مقاومة ثقل الأوعية المملوءة. حين وصلت البيت، كانت الأم -الشمس- قد غادرت موضع انتصاف النهار، واضعةً قدم أولى على عتبة غروبها. خزنت الأوعية في مكانها، أغلقت بوابة البناية، وصعدت منهكا إلى البيت. طرقت الباب، فأجابني تساؤلها الخائف:

- «من؟»

ضحكت، فقلت:

- «من عساه يكون يا مولاتي؟ أنا العاشق المذبوح بك»

فتحت الباب على لهفة، وانقضت تعانق - بعنف اشتياق - رقبتي.

- «رويدك يا ساحرتي»

فقالت ولم تزل على تشبثها:

ـ «صحوت فلم أجدك، فخفت عليك»

(كم صار عظيما خوفها يا مولاي منذ أن أسقط عنها السحر قوته! أخذت القوة في ذيلها الشجاعة، فبت أنا لها الحامي. بعد أن كانت لي راعية). قلت:

ـ «ما شئت أن أوقظك»

فقالت، وفي الصوت رجفة:

ـ «لا تعاودها أبدا»

قبلتها، وقلت:

ـ «سمعا يا مولاتي»

صبت لي الماء، فاغتسلت مقتصدا فيه. وضعت على المائدة ما بقي من أرنب صدته منذ أيام ثلاث، فأكلنا. أراحت الرأس على كتفي وسألتني أن أحكي لها ما فعلت اليوم. الحكايات كانت شحيحة لنتبادلها، وحكايات ما قبل الفناء نفدت، فكنت أقص عليها أحداث الأزمان التي أقضيها خارج البيت، وكأنما فتوحات وبطولات هي. وكانت مشتاقة هي لمد وصال الكلمات، فتشجعني على الاستمرار؛ فإن قلت لها إني نقبت في الخرائب، اندهشت. وإن أخبرتها إني ذهبت إلى النهر، انبهرت! كررَتْ طلبا قديما بأن آخذها يوما للسباحة في النهر، فوعدتها أن يكون قريبا.

وكيف لي أن أرفض عذراء مرمرية دعتني؟ هذا ما كان بغير مبالغة. فليذهب كل سحر العالم للجحيم؛ فأنا في لحظة المكاشفة عرفت أن النفس لم تتق لغيرها منذ الميلاد. اخترتها هي، ومشقة العيش معها. عن رغده

دونها. قبل أن نتم الاتصال، وقبل بلوغ لحظة موت الساحرة، طلبت منها أن تستدعي للسحر مهمة أخيرة، فتساعدني على العثور بين الأطلال على ما نحتاجه لاستمرار الحياة. جلسَتْ أمام مبخرتها، تمتمت تعاويذها، صلت لآباء السحر، فأخرجت من النار الخارطة. كل الصروح المتهدمة محددة بها. وعلامات في أماكن وجود الحاجيات الهامة. بها وجدت الحبال، وأوعية للماء، وألواح الخشب، وبضع علب ثقاب، وسكاكين بحال جيدة؛ صنعت من سلاح إحداهم حدا لحربة من وتد خشبي طويل. ومن الخشب نحتَتْ لي قوسا، شدت عليه حبلا رفيعا كوتر، فتعاونا معا لصنع السهام. قضينا نهارات بالعراء نتدرب معا على استخدامه، وخرجنا معا للصيد مرات؛ فكانت مرة في نهار سبقته أمطار مسائية أوحلت الرمال، فوجدنا في الطين آثارا لأقدام الذئب، فخفت عليها، وما عدت أسمح لها بالخروج من البيت، برغم إلحاحها علي بطلب زيارة النهر.

حملتها نائمة، ووضعتها في الفراش. غطيتها، قبلت جبينها، فابتسمت وكشفت عن الزرقة الناعسة تحت الجفنين. رمتني بسهم من كنانة الأهداب وقالت:

ـ «عدني أن تأخذني للنهر غدا»

تعجبت لإصرارها، فقلت:

ـ «أعدك يا مولاتي»

ثم سقطت جوارها تعبا.

استيقظت فكانت هي نائمة لم تزل. قبلت جبينها، فتململت في نومها، فابتسمت. نهضت عن الفراش، علقت القوس والكنانة في كتف، والجراب القماشي في كتف ثان. وقبضت على الرمح القوي. دسست الخارطة في جيبي، وغادرت البيت. (هل أخبرتك من قبل يا مولاي، إنني -ومنذ أن شحذت بصيرتي- تعلمت أن أراقب مواضع الخطوات، حذرا للقاء محتمل مع ذئب الصحراء. فلا يغادر سلاحي يدي). مسحتُ أركان منطقة الخرائب، فتأكدت أن الذئب ليس هنا اليوم. جاءتني الرياح تسعى. تمسحت في وجهي، فضحكت. رسمت لها على الأرض -بسن الرمح- دائرة، فخطفتها وابتعدت صارخة فرحة.

زحفت إلى البناء المنشود داخلا عبر نافذة أرضية مفتوحة، ربما كانت قبل الفناء تطل على العالم من عل. صعدت السلم المتهالك حذرا إلى الطابق المنشود. لم يعد فيما تشي به الخارطة باق سوى الأخشاب الكبيرة، وأقمشة سليمة قد تصير ذات فائدة يوما. توغلت في البناء إلى عمق تاه معه ضوء الأم -الشمس- فسادت ظلمة، فاستحال العثور على شيء. فتشت جيبي فلم أجد ثقابًا. قررت التراجع إلى حين عودة مصحوبة بشعلة من نار. حين قطعت نصف الطريق الخارج، سمعت حركة خلفي، ومن غور الظلام لمعت جمرتان. زمجر شيء ما تحتهما، فلفحتني رائحة نتنة، فأدركت في الجمرتين عينين حمراوين. هرعتُ متقهقرا إلى السلم، أستشعر ثقل حركته التابعة لسرعتي. قفزتُ الدرجات المتهالكة، لأسمع أصواتها تتداعى خلفي لثقله. بلغت الطابق الأرضي، قفز هو محطما جدار الدرج، وانحشر جسده أمامي يسد عليّ المخرج. ضخم، فكان ارتفاعه يفوق قامتي. مواجهة بلا مفر هي بين بطش الذئب وقوة مخالبه، والرمح المشرع في يدي. فأدركت لفوري كم هو بائس سلاحي. (أبحرت يا مولاي في فيض علمك للحظتي. فتذكرت أن حدثتني عن خوف الذئب من النار.. أوتدري يا مولاي ما هالني؟ لم تكن

معي نارٌ.. اللعنة على حكمتك حين تصير جذوة لهب أنفع منها). ناوشته برمحي فزمجر عاليا. لم ينقض فأدركت أنه لم يزل يزن بأسي. صرخت فيه ولوحت برمحي أطعن الهواء، فبدا عليه تردد. لوحت ثانيا فتراجع. ضربني ضوء الأم -الشمس- فانتبهت وقد انزاح جسده عن بعض من النافذة التي استخدمتها كمدخل. انطلقت أجتازه، انزلق جسدي فوق الرمل عابرا النافذة الأرضية، بحركة سريعة، فلامس وجهي شيئا من فرائه الكثيف. زمجر غضبه، وأرسل مخالبه خلفي -عبر النافذة التي لا تسع جسده- فما طالتني. وحتى يجد المنفذ الذي دخل منه، كنت أنا سبقت الرياح عدوا. دخلت بنايتي وأغلقت الباب الحديدي خلفي، وانهرت تحته مرتجفا.

سألتني حين رأتني أقف طويلا إلى النافذة:

ـ «ما به مولاي؟»

كانت الأم -الشمس- تربت عليّ قلقة، تتلمس كامل جسدي بحثا عن خدوش، غير عابئة بقسمي لها أن لم يمسني الذئب.

ـ «لا شيء يا مولاتي؛ متعب فقط»

سألتني:

ـ «ألن نذهب إلى النهر؟»

لم أشأ أن أحدثها بما صار، فأزيدها خوفا.

ـ «اليوم أنا متعب»

فقالت بعناد طفل:

ـ «ولكنك وعدتني»

ما كان كاهلي ليطيق حمل تدليلها فوق ما أحمله من هم مكتوم، فصحت بها:

ـ «قلت لك: متعب؛ ألا تفهمين!؟»

أغلقت النافذة، وقلت وأنا أعبرها إلى حجرة النوم:

ـ «سأنام الآن؛ فلا يوجد ما نأكله على أية حال»

مثلت عليها نوما، فلم أدر أنني نمت حقا، إلا حين وجدت الأرنب الأبيض الضخم يوقظني صارخا:

ـ «إلا النهر!»

فتحت عيني فكان الظلام حاضرا، وكان جسدها يبرز بدفئه بجواري. ربتُّ عليها وهمست:

ـ «سامحيني يا مولاتي؛ لن أصيح بك مرة أخرى»

قالت:

ـ «بل سامحني أنت؛ فما كان يجب أن أبخس لتعبك قدرًا»

رغم الظلام تلاقت الشفاه في منتصف الطريق بقوة جذب العشق، فقلت نشوانا برضائها:

ـ «أقسم بحياتك أن نذهب غدا إلى النهر»

(اللعنة على حكمتك الخرقاء يا مولاي، فما زرعت بي إلا جبنا.. لن يصيبني إلا ما قدره الله لي، وما أنت إلا لص وقح).

ضحكَتْ، فتنهدت الأم -الشمس- وضمتنا. اشتبكنا في العراء عشقا. ربـتـت

الرياح على عرينا الخجول. كانت هي فرحة بتجربة التوحد على العشب الندي. وكنت أنا منتشيا بصفاء العشق في العراء. أراحت رأسها على كتفي، فاستراحت الرياح لاهثة على فخذينا. همست لي بسر القلب، فهمست لها بلوعة الروح. قالت:

ـ «لماذا تحبسنا الجدران، والأرض لنا وما حوت؟»

فقلت:

ـ «ألا لعنة الله على الجدران»

قالت:

ـ «احك لي كيف حياتك كانت بالعراء؟»

حكايات تكررت فما ملت منها، فحكيتها من جديد. عن بندقيتي حكيت، فسألتني:

ـ «أكانت أفضل من القوس والرمح؟»

فقلت:

ـ «القوس مصنوع بيد جنية نورانية خرجت من ضلعي، أما البندقية فلا»

عن الجبل الصخري الصغير حكيت، فسألتني:

ـ «أكان أفضل من بيتنا؟»

فقلت:

ـ «بيتنا جنة خلد، لا تتسع -على براحها- سوى لاثنين هما نحن»

عن ألاعيب الرياح حكيت، فسألتني:

ـ «أكانت تمتعك أكثر من صحبتي؟»

فقلت:

ـ «وكيف لرياح خرقاء، أن تدللني مثلك، أو تسقيني دفئا وأمانا كما تفعلين؟»

عن نبع الماء الرائق حكيت، فسألتني:

ـ «أكان أفضل من النهر؟»

فقلت:

ـ «في سريان النهر أملٌ، أنت مبتدأه ومنتهاه»

سألتني:

ـ «فلماذا لا نبني فلكنا، ونسعى وراء حلم المدينة الأخيرة؟»

فقلت:

ـ «لا حاجة بي للناس وأنت معي»

ضحكت وشاكستني:

ـ «قد يتغير رأيك إن كانت بالمدينة من هي أجمل مني»

فقلت:

ـ «اسألي الأم -الشمس- إذن، إن هي رأت في رحلاتها الأبدية أجمل منك مخلوقا»

نهضت برشاقتها تتأمل ماء النهر. ملأت الصدر هواء، وقالت:

ـ «دعنا نحيا هنا»

عن دهشة قلت:

ـ «بالعراء؟»

عن نشوة قالت:

ـ «بالعراء»

ثم أسقطت عنها ما بقي من ستر الرداء، فالتمع في حضن الأم -الشمس- مرمرها. خاضت في الماء فشهق النهر شهقة أشعلت غيرتي، فتبعتها وأنا الذي لا أجيد العوم. التقى الجسدان في عناق برودة الماء، فكأنما كانت تحملني مع الماء، وجدت نفسي أطفو. قالت:

ـ «سنسبح معا كل يوم»

ثم قبلتني، فقالت:

ـ «سنتبادل أسرار العشق على العشب الرباني الأخضر كل يوم»

ثم قبلتني، فقالت:

ـ «سنصطاد الأرانب معا كما كنا نفعل»

ثم قبلتني، فقالت:

ـ «وسنسهر ليلا مع الرياح أمام نارنا، نرسم دوائرنا، وهي تمحوها»

ثم قبلتني، فقلت أنا:

ـ «والذئب؟»

صاحت:

ـ «اللعنة على ذئاب الأرض! النار ستحمينا»

رق لها قلبي، فابتسمْتُ، فقلت:

ـ «أمرك مولاتي»

عانقتني بعنف، فابتهجت الروح. علّمتني ضرب الماء بالذراعين، فوجدتهما يحملاني للأمام. سبحنا قليلا ثم خرجنا مستسلمين للأم -الشمس- تجففنا. غفونا ملتحفين ضوئها ودفئها، حتى صحوت على تأوه مزق القلب. كانت مولاتي تتأوه شاحبة. جزعت فسألت:

ـ «ما بك؟»

فقالت:

ـ «الأرض تدور»

ثم تقيأت؛ ولما بدت على قسماتها راحة، ابتسمت وقالت:

ـ «عساها البشارة»

فهمت مقصدها، وإنما قلت:

ـ «أو هو مرض من التعري تحت الرياح»

فقالت:

ـ «أتراه التعري تحت الرياح هو ما أخّر عادتي؟»

تأملتُ فرحة العينين، فلم أدر كيف أنطق (المدد يا مولاي.. ماذا أنا فاعل إن صدق الحدس؟ وهل في هذه الحياة متسع لروح ثالثة؟). ثم قالت:

ـ «والأهم من كل هذا إحساسي يا مولاي؛ فأنا أكاد أشعر به في الأحشاء نطفة»

زاد صمتي صمتا، فقالت:

ـ «تبسم، ولا تشاكس بهجتي»

فتبسمت كما شاءت، وقلت:

ـ «مبارك لنا يا مولاتي»

كانت البطن تكبر. والفكر في الرأس يكبر. والتعب في البدن يكبر. لم أر الذئب بعدها، فنسيت قلقي وخوفي منه، وبات سكن الخلاء حلما نتقاسمه. ولكن خشيتي على الوليد الآتي، جعلتني أفني كل الأخشاب التي جمعتها على حلم الفلك، لأبني لنا بيتا على شط النهر. لم يكن بيتا مثاليا، أو يقارب حتى ما اعتدنا سكنه منذ أزمان لقائنا الأول، ولكنه كفانا. سعدَتْ به حين أخذتها إليه تام البناء. الأخشاب التي غرستها في الرمل وربطتها بالحبال كجدران أربع، كانت متباينة الأطوال، فصعب علي تركيب سقف لها، فاكتفيت بربط ملاءة السرير -فما عادت لنا بها حاجة- ما بينها لتقينا شمس الظهيرة. فلما رأتها قالت:

ـ «وماذا عن المطر؟»

فقلت مخبئا قلة حيلتي في رومانسية بلهاء:

ـ «سأحميك بجسدي»

فتعلقت في عنقي وقبلتني.

أبقيتها في البيت الجديد؛ فقد ثقلت حركتها، وتركت لها ثلاثة أرانب حصيلة صيد يوم واحد ذي بركة. وقطعت رحلات طوال اليوم إلى الخرائب، أجمع متاعنا وأحمله على لوح النقل. حتى أتممت جمع كل ما يمكن حمله. فرشت هي الأبسطة على الأرض -الرمل- ووضعت الوسائد. صفقت مرحا وقالت:

ـ «يا له من بيت!»

قلت:

ـ «كيف ستقوين على افتراش الرمل بعد الحرير؟»

فقالت -كذلك- برومانسية بلهاء:

ـ «حضنك أحن على جسدي من الحرير»

ليلتنا الأولى سهرناها متلاحمين في العراء أمام البيت. الأم -الشمس- أمتعتنا بغروب زاهي الألوان. والريح الشقية ركبت النهر، فجعلت لسرعة جريانه خريرا عذب الموسيقى. فانفتحت الروح على هموم العقل، فقلت مفصحا:

ـ «كيف سنفعلها؟»

من خلف إغماض العين الناعسة قالت:

ـ «نفعل ماذا؟»

فأجبتها:

ـ «أعني الميلاد»

ضحكت وقالت:

ـ «كما ولدت حواء ذرية البشر. يا مولاي، ألا تعلم أنها غريزة؟ الله الذي أنضج الثمرة في أحشائي سيقطفها لنا بأمان، فلا تخف»

تخففت قليلا من قلقي فشاركتها لحظة النوم. جاءني الأرنب الأبيض الضخم يوقظني. كان يتقافز أمامي مبتعدا خطوات، ثم يتوقف ملتفتا إلي ويتشمم الهواء. فهمت أنه يريدني أن أتبعه ففعلت. ركضت خلفه حتى بلغنا الجبل الصخري الصغير، فوجدته متصدعا يرجو انهيارا. هرعت إليه -والأرنب- ننظر كيف من سبيل لنجدته، فجاءنا الذئب مسرعا، ولطم الجبل بكفه فأهاله ترابا. صرخت أنعي الأب -الجبل- فجلجلت ضحكة أنثى من فوق

الذئب. تطلعتُ فكانت مولاتي تمتطيه.

صحوت جزعا أتعوذ بالله من الشياطين (فماذا عن الشياطين يا مولاي؟ أتراهم هلكوا مع البشر حين الفناء؟) يعتصرني خوف على المحبوبة، وقلق عظيم على الأب -الجبل.

كانت البطن تكبر وتكبر، وأنا منغلق الروح على همومي؛ عدا أوقات كانت تدخلني مجبرا إلى ملكوت أحلامها بالطفل القادم. تحكي لي مخططاتها عن حياة الطفل المحتملة، إن كان ذكرا، أو كانت أنثى. أجاريها على مضض في البدء، ثم أندمج معها، فأندفع متورطا في أحلامها، فيصيبني ظمأ لعناق الابن القادم من المجهول، وتحط على قلبي محبة له، وإن لم أره بعد. الصيد كان وفيرا وقتها، وبت أكثر براعة في استخدام السهام. وكأنما الله يمدنا برزق الروح الجديدة. ولكن مللا كان أصابها من الطعام الوحيد، فقل أكلها، فازداد قلقي. سألتني يوما مهمومة آملة:

ـ «ألا يوجد في جوف النهر سمك؟»

للسؤال جواب عملي أصعب من الإفتاء بـ: (لا أعلم). غصت في النهر حين ظهيرة، مستضيئا بما تمدني به الأم -الشمس- نافذا عبر سطح الماء. برغم هذا الرؤية كانت شبحية، فما كدت أتبين الكثير من عمق الماء. ربطت خاصرتي بأطول حبل استطعت له سبيلا، وجعلت طرفه الأخر في يديها على الشط؛ حتى تكون لي عونا إذا ما أعاقتني قدرة العوم المحدودة عن العودة إلى السطح. تلفتّ هنا وهناك، فما وجدت شيئا. جربت الصعود إلى السطح مرة، فوجدته هينا. لوحت لها من الماء لما رأيت على وجهها ترقبا، فلوحت لي ضاحكة. عاودت الغوص، مستكشفا أركانا أخرى، فلم تلاقني أية حركة، تشي بحياة تحت الماء. كدت أعود إليها بالخبر الحزين، لولا أن جذبتني الأم

-الشمس- بشعاع ضوء سقط على شيء ذي لمعان، سبحت إليه، فكان بعضه مدفونا تحت رمل القاع. قبضت عليه وخرجت به. طافيا على سطح النهر، تأملت صيدي المعدني، فوجدتها ساعة مولاي الحكيم (آآآآآآآاه يا مولاي.. وأنا الذي بدأت أطعن العقل في إيمانه بوجودك.. وقد حدثني إدراك كاذب أنك لست سوى محض وهم، أو حلم انتابني!).

فتحت غطاء الساعة، فإذا بعقاربها تدور لم تزل. لم تكن تشبه أية ساعة سبق وأن رأيتها في أزمان ما قبل الفناء. كانت تدور فيها عقارب للوقت، وأخرى للأيام، وأخرى للأعوام. كانت تحسب الثانية، وأجزاء الثانية. تأملتها قليلا فلم أشعر بها وهي تقترب، وتربت كتفي.

ـ ما بك؟

لم أعرف أن ذهول الروح صعد إلى وجهي نقيا، إلا حين رأيت قلق نظراتها، فقلتُ:

ـ «لقد مر ثلاثون عاما منذ الفناء!»

رددت خلفي:

ـ «ثلاثون عاما!»

ألقيتُ الساعة من يدي وهرعت إلى النهر، ملت أنظر إلى انعكاس وجهي على صفحته، فوجدت وجهَ عجوزٍ، متغضن، أشيب الشعر، فصرخت:

ـ «مستحيل!»

التفت إليها أستوثق ما شاهدته. كانت أمامي صبية مليحة، فقلت:

ـ «كيف؟»

قالت:

- «ربما...»

وسكتت، وكأنما فشلت في الإمساك بحجة، فصرخت فيها:

- «ربما، ماذا؟»

تنهدت، وجرت على صفحة وجهها دمعة، وقالت:

- «هي تعويذة ألقيتها على نفسي وقت أن كنت ساحرة، لكي لا أشيخ. لأجلك. كل ما أردته هو أن أحتفظ لك بشبابي وجمالي، فقد كنت أنتظرك»

(المدد يا مولاي.. أما من حد للخداع؟ فأنا المخدوع بحكمتك، المخدوع بسحرها، المخدوع بإدراكي الذي شوهته الوحدة). نهنهَتْ، فقالت:

- «أنت مولاي. كما عرفتك، وكما عهدتك، وكما أحببتك»

قلت:

- «وما أنت إلا مخادعة»

اقتربت تلمسني، فتراجعت عنها. زاد عويلها، ثم استحال صرخة عالية، وألم أقعدها على الأرض، فأمسكت البطن المنفوخ، وقالت:

- «لقد حان الوقت!»

صحوتُ ذات صباح وقد زاد شوقي للأب -الجبل- أضعافا. قلت لها:

- «إن كان ما من بد للرحيل، فلن أرحل دون وداعه»

كان الفكر وهوى الفؤاد استقرا على الرحيل خلف حلم المدينة الأخيرة. تحملت جهد بناء الفلك صبرا إلى منتهاه، فلم تبق إلا لمسات. عدت إلى الخرائب يوميا؛ رحلة واحدة بالنهار أعود منها جارا خلفي ألواح الخشب،

فأسقط على باب البيت متعبا. فلما وجدت الجهد لا يطاق، جعلتُ من رحلات البحث موعدا كل يومين. وبين الموعد والآخر وقتا للصيد، الذي قل كثيرا جهده، فالأرانب كانت تسعى حولنا، تأكل من كلأ النهر. حتى كنت أوقاتا أصيدها وأنا جالس في كنف الأم -الشمس- متكئا إلى جدار البيت. وكانت هي تعود من النهر وقد غسلت الطفل، فتهلل حين ترى الأرانب مسفوحا دمها حولي.

ـ «هذا رزق وليدنا»

لم يمر زمن على ولادته -بحساب ساعة مولاي التي لا تفارق جيبي- بينما بدا وكأنه معنا منذ بدء الدهر، وانفجار الأكوان. وكأنما بعثنا إلى الأرض وهو في لفائفه على ذراعي أمه.

كانت أمه -بقماش بللته بماء النهر- تنظفه من ماء الرحم، وعلى وجهها ابتسامة أخجلت الأم -الشمس- فوارت وجهها بسحابة، عدا عين تطل علينا بها. فقالت:

ـ «بماذا سندعوه؟»

قلت:

ـ «وما يهمنا بالأسماء وما على الأرض سوانا؟»

فعبست وقالت، بعد بحث عن حجة:

ـ «وماذا إن انتوينا الرحيل إلى آخر المدن، فكان هناك أطفال سواه؟»

قلت لها:

ـ «نسميه إذن: جبل»

رددت:

ـ «جبل»

ثم استساغته، فابتسمت، فقبلت الوليد.

في هذا الصباح استيقظت، فودعتها إلى حين. قبلت الملاك الغافي لصق جسدها، ووعدتها أن أعود قبل الغروب. حملت الرمح الذي بت أستخدمه متكأ في السير. جاءتني الرياح تسعى حين خرجت من البيت، دارت حولي دورة، فأخبرتها أنني ذاهب للجبل الصخري الصغير، ففرحت وحدثتني عن الأيام الخوالي، وانطلقت تجري بين ساقي؛ تسابقني حينا، وتتبعني حينا، وحينا أمل منها، فأرسم لها دائرة تخطفها وتجري مبتعدة. الأم -الشمس- صعدت إلى مركز السماء لتنظرني، فصرخت فيها أن تعود إلى البيت، وتنتبه للزوجة والولد، فأبت إلا أن تتبعني. لاح لي من بعيد الجبل الصخري الصغير منتصبا إلى السماء كبرياء، فازددتُ لهفة، وعدوتُ أقطع فارق المسافات، ناسيا حق الجسد الذي ما عاد يسع جهدا، فمر الأرنب الأبيض الضخم لحظتها من أمامي، وناداني قائلا:

ـ «عد!»

ثم اختفى؛ فدهشت لرؤيته متيقظا. أم تراني غفوت في سيري؟!

بلغت الأب -الجبل- فكانت على صخره دمعة تحجرت، فلما رآني، حطت عنه على الأرض بعنف أثار الرمال، وابتسم. ربتُّ عليه معتذرا، فكشف لي عن الشق الصغير. قرفصت فيه مستمتعا بعناق الجبل، فكانت فرحة عظيمة بلقاء بعد افتراق.

حكيتُ له كل ما كان معي منذ غادرته؛ فرح كثيرا لما علم بزواجي. وبكى

تأثرا حين حدثته عن ابن صار لي سميته: جبل. دعاني للعودة لسكنه من جديد، فوعدته -كاذبا- أن أنظر الأمر مع الزوجة، ولم أحدثه عن نية ركوب النهر، أو عن الفلك الذي قارب الانتهاء. كاد الوقت يسبقني لولا أن مالت الأم -الشمس- فطالني شعاعها داخل الشق، وخزني بحرارة فانتبهت لمرور الوقت، وقد كاد الجسد العجوز المكدود لطول المسيرة يركن لإغفاءة، فتذكرت وعدي للزوجة بعودة قريبة ما دون الغروب، فنهضت معتذرا للأب -الجبل. شاكست حزنه، حتى ارتد إلى روحه، وطفت على الوجه ابتسامة. قبّلت صخوره ومضيت.

سرت تتبعني الرياح، وقد ساد الدنيا لون الشفق الأحمر. لاح لي البيت من بعيد، وبشرتني الرياح بصوت الماء الجاري. فلما نقصت المسافة إلى حد نفاذ البصر، رأيت الجسد الضخم ذا الفراء الأسود يتحرك متمهلا خلف البيت. صرخت مناديا الزوجة أن تنتبه، فحالت بيننا طول المسافة. أمرت الرياح أن تحمل إليها الرسالة، فغادرتني مبتعدة عكس الاتجاه! عدوت بأكثر من وسع البدن، رأيت كف الذئب تحط على البيت، فتحيله أشلاء، والزوجة تخرج زاحفة من تحت بقايا الأخشاب وتصرخ. ناديتها أن تبتعد، فبح الصوت من اللهاث. رأيتها تحاول أن تعود إلى الأنقاض، ولكن الذئب سبقها. كان فوق بقايا البيت يفتش بين الأخشاب، فلما رفع الرأس، كان (جبل) يتدلى داميا من بين أنيابه. صرخت هي، وصرختُ معها، فارتج على الذئب والتفت إلي، وكان رضيعنا يختفي سريعا خلف الشدقين، تاركا أثرا من حمرة على الأنياب. بغضب رميته برمحي، فحاد عنه، فجرى مبتعدا، وجريت وراءه (والله يا مولاي لو أدركته لحظتها لأكلت لحمه بأسناني!). سقطت على الرمل بعد خطوات منهكا، وكانت هي تصرخ وتولول. دنوت منها والصدر يكاد ينشق، ولست أدري أحزنا أم تعبا. كانت تحتضن قطعة بقيت من لفافة الطفل تقطر دما. تماسكت كي لا أزيد أوجاعها. حاولت ضمها فدفعتني وصرخت:

ـ «أنت السبب. أنت من جردني من السحر. لو لم تختر إرضاء شهوتك كحيوان، ما كان صار لنا هذا»

ثم صفعتني وقالت:

ـ «أنا أكرهك»

وكنت أصدقها لحظتها، فالكره علا وجهها، لا تنقصه كلمات تدعمه. لم أحدثها أو أقربها ثانية حتى لا أزيدها سوءً. حافظت على مسافة بيننا. فلما نامت منهكة حزنا، بقيت ساهرا بجوارها للصباح. برغم التعلق بالرمح، وبرغم شحذ الحواس منتبها لعودة الذئب، إلا إنني وجدت في وحدتي، وشجن الليل، متسعا لإطلاق الحزن فبكيت. بكيت كثيرا حتى آلمتني عيناي (المدد يا مولاي.. ماذا تقول حكمتك في نعمة وأمل منحنيهما الله ليأخذهما ثانيا ولم أشبع بهما حتى؟ أفي جعبة حكمتك تأويلا لهكذا فعل؟).

جاءني الأرنب الأبيض الضخم يتشمم حطام البيت. سالت من عينه دمعة، ثم نظر إلى الزوجة النائمة وقال:

ـ «لا تصدقها»

حملت قطعة خشب كانت بجواري، وقذفته بها فجرى مختفيا. في الصباح استيقظتْ فقلت لها:

ـ «دعينا نعود إلى بيتنا. فما عاد من أمان في سكنى الخلاء»

ابتسمت، فاستبشرتُ، فقالت:

ـ «وهل عاد من أمان في سكنى الأرض؟ أو في هذه الحياة البائسة؟»

قلت لها:

ـ «إن كنت ترمين لركوب النهر، فهو ليس بوقت ملائم لهذا الحديث»

فقالت:

ـ «أنا أتحدث عن ركوب الموت. عن رحلة أخيرة لعالم آخر»

ضايقني ذكر الموت، وقلت:

ـ «لا تدعي الحزن يملي عليك أفعالك»

فقالت وفي العينين قسوة:

ـ «إنه أنت لا الحزن. أنت من قتلت وليدنا بإصرارك الأبله على زيارة جبلك القذر»

ثم أغمضت العينين مدعية عودة للنوم. كالمذبوح كنت بكلماتها فازددت هما. الأم -الشمس- ما كان حزنها أقل، فلم تبد من وراء السحب طوال النهار. والرياح بقيت ساكنة؛ حتى لما رسمت لها على الأرض دائرة، لم تتحرك. فلما قامت من نومها كانت أسوأ حالا. قالت:

ـ «جبل لم يزل معنا، جبل لم يغادر بعد، لم يزل ينتظرنا»

قلت لها:

ـ «أرجوك، كفي عن هذا»

فقالت:

ـ «لا سبيل آخر. أولم يكفك الضياع في الأزمان ثلاثين حولا؟ ماذا تنتظر من العمر الآتي، المسروق كماضيك؟»

امتنعت عن إجابتها مخافة أن تتمادى. فصمتت بدورها، فلما كانت لحظة لا بد منها، خطفني النوم. صحوت فلم أجدها بجواري. رفعت الرأس ناظرا، فكانت قرب النهر؛ واقعة فوق الرمح المغروس كوتد في طرح النهر، وسلاحه منتصب إلى السماء، يخترق الصدر، ويخرج بالدماء من ظهرها.

كالوس..

والآن يا (كامن) قد حان الوقت لنتكاشف.

سأخبرك بالكثير؛ فقط لو كان بإمكانك أن تسمعني، أو تقرأ كلماتي. ربما في يوم ما إن علمتَ بوجودي، فستعلم كيف كان مستحيلا الحديث معك، أو إبلاغك بما يحاك ضدك، إلا بزيارات خاطفة، وتلميحات مبهمة في الحلم أو اليقظة.

(إبليس) يعلم أن هناك من يناوش مخططاته بشأنك. يعلم أن وراءك حاميًا، والأدهى إنه يعلم أن (كامن) -أنا- هو ذلك الحامي. (كامن) -أنا- هو الذي عصاه وتمرد عليه؛ فإن حاول الاتصال بك فسيعلم إبليس مكانه، فتكون نهايته. فما يمثله (كامن) -أنا- لإبليس أكبر من مجرد متمرد مارق عن إمرته. (كامن) -أنا- هو الضد لإبليس، هو الذي يريه عن غير قصد، كم هو أحمق كان حين استحال شيطانا، بعد أن كان ملاكا. فـ(كامن) -أنا- اختار التحول من شيطان إلى ملاك، فصار أرنبا أبيض، ضد إرادة إبليس، الذي حرم على أتباعه التجسد إلا في اللون الأسود.

نعم يا (كامن)؛ (كامن) -أنا- هو الأرنب الأبيض، رفيق رحلتك منذ لحظة الفناء. بل ورفيق رحلتك الأكبر منذ أن أطلقت أول صرخة تعلق بالحياة. في عالمنا حين ولادة طفل للبشر، يقيد له منا قرين، (كامن) -أنا- هو قرينك. لكما ذات الاسم، ونفس يوم الميلاد. (كامن) -أنا- لم يعرف رفقاء سواك، ما كان لحياته من هدف إلا إضلالك، وتزيين الاختيارات الخاطئة. كان حجابا على عينيك، قيدا في يديك. ولكن، أتعلم أمرا؟ (كامن) -أنا- لم يحب أبدا مهمته تلك. كثيرا ما كان يشفق عليك؛ كيف كان فقرك؟ قلة حيلتك؟ كان يتجرأ ويسأل إبليس: كيف للبشر أن يحتملوا هكذا حياة؟ أن تشقى

وتتعب، تخاصم ضوء الشمس لأيام وأسابيع، تتنفس تراب الجبل، وتشرب ماء كريه الرائحة، ثم يحصد سواك ثمار جهدك. فكان إبليس يضحك، ويقول إن هكذا هو الإنسان الذي قال عنه الخالق: ﴿جهولا﴾. وبرغم تعاليمه التي كنا نتلوها صغارا، لم ينجح إبليس في حمل (كامن) -أنا- على كرهك، أو كره البشر عامة، عدا أولئك الذين كانوا يستغلون فقرك، وهوانك. أوتدري أنك حين كنت تنام في المنجم، فتأتيك صور وخيالات لتمردك على واقع خانق، فتقوم تسب وتلعن الأيام والحظوظ، كان (كامن) -أنا- هو من يزرع في روحك السكينة -على عكس إرادة إبليس- ويوسوس لك بالقناعة، فلا تتبع حماقات السخط، فتقودك للهلاك. أوتدري أنك في كل مرة حدثت نفسك عن حياة أفضل تستحقها، وأن المآل لن يكون طويلا إلى هذا الحال، كان (كامن) -أنا- هو من يذكرك بنعم الله عليك فترضى. لقد حاول كثيرا يا (كامن) أن يدلك على طريق صحيح، طريق تستحقه كمخلوق حي، يتنفس ذات الهواء، سواء كنت من الجن أو من مرتبة البشر، ولكن (كامن) -أنا- يرفض كذلك أن تدمر حياتك وأمنك، لأجل ذلك الطريق. (كامن) -أنا- هو من أنقذك حين كدت تلوث صحيفتك بإثم مع تلك العاهرة القبيحة؛ هو من أغواك باتباع سبيل العنف، ونفث في وجهها زفرات حارة، فضاقت بك، ولم تحتملك، وطردتك، فبقيت نقيا. (كامن) -أنا- شاهدك تكبر، مصاحبا الفقر، وقمع الشهوة، فما زاغت عيناك يوما للحرام. في عالمي اعتبروا (كامن) -أنا- فاشلا، حتى غضب عليه إبليس وهدده بالموت، ولكن أوان الفناء سبقنا، فأتاك (كامن) -أنا- لينقذك، ويقودك لتكون آخر البشر. وكما بدأت الحياة بستار يرفع على بشري واحد، ستنتهي بستار يغلق على بشري واحد، يؤدي عرضا أخيرا، بلا جمهور يحييه. وأنت يا (كامن) هو ذلك البشري. ولكن إبليس كما أغوى أول البشر، يريد أن يختتم عمله بإغواء آخر البشر.

حاولت -صدقني يا (كامن)- أن أفسد مكره، ولكن ما قدرت. دائما هو

الأقوى، والأقدر. حاولت بصدق أن أحميك. لأجلك خان (كامن) -أنا- كل عهود الشياطين، وخرج من رحمة إبليس، وبات اسمه لا يذكر إلا مصحوبا باللعنات. ولكنه ما تراجع، ولن يتراجع. فقط ساعده أرجوك، ساعد (كامن) -أنا- فلا تسقط ذبيحا للغواية. لقد حاول وسعه؛ حين تجسد لك إبليس حكيما لصا، وجميلة ساحرة، ليشغل عقلك وفؤادك عن اتباع سبل العيش المضمون؛ نحت لك (كامن) -أنا- من الصخر جبلا راسخا، تحتمي به. وجعل لك نسلا لا ينقطع من الأرانب، يسوقها حولك، صيدا هينا. سلط إبليس عليك ذئبه الأسود المخيف. فجعل (كامن) -أنا- لك أرنبا أبيض صديقا، إن أنت فهمت رسالاته. أجرى لك إبليس نهرا يغريك بالمجهول. فكان (كامن) أنا- يجذبك لماضيك الآمن؛ لأبيك الجبل، وأمك الشمس، وصديقتك الرياح.

إن سعيت وراء الأمل يا (كامن) فلن تحصد إلا يأسا. هذا ما سطره إبليس في صحيفتك السوداء. لا تتبع هوى النفس يا (كامن). اتبع الأرنب الأبيض؛ فكما نجاك مرة، بوسعه أن ينجيك مرات. لا تتبع الأمل، ولا تصغ ليأس. عد إلى شق الجبل الحنون، وواصل مع الرياح لعبة محو الدوائر.

(كامن) -أنا- يراك الآن يا (كامن) متصلبا أمام النهر. يخاف مما قد يزينه لك جريان الماء. يتوق لمطالعة أفكارك، ولكن وصل مباشر بينكما سيفضح لإبليس مخبأه. و(كامن) -أنا- خاطر لأجلك بما يكفي لضمان مقتله؛ حين اكتشفت جثة الزوجة، خشي أن تكون هي لحظة إعلان إبليس الانتصار، فهرع إليك، أنصت فوجد الانتحار ضمن ما يجري في رأسك، خاف، فوسوس لك أن تهدأ، زين لك الحياة، وحدثك عن الجبل الذي لم يزل ينتظر عودتك؛ فلما قرأ في نفسك سكونا، ابتعد مسرعا قبل أن يدركه إبليس. (كامن) -أنا- حزين لأجلك، يعلم أن امتحانك صعب؛ ولكن ما عليك يا كامن إلا أن تتمسك بهامشك، فلا تنجرف وراء أية مغامرة، ولو كانت الموت ذاته.

«لم يزل عند نهايات الكون
متسع شاسع للأمل»

وقفتُ في حضرة الأب -الجبل- فكان يرتعش كاتما عني فيض حزنه وألمه لمصابي. كان الخبر سبقني إليه، تحمله الرياح. أخبرتُه أني أتيت إليه طالبا العون. دعوت الرياح فأتت. دعوت الأم -الشمس- فأطلت على مضض، كاسرة احتجابها حزنا خلف الغيوم منذ الواقعة. قلت لهم، مجيبا تساؤلات أطلت من العيون:

ـ «أعينوني بقوة على الثأر»

حفرت لها قبرا في طمي النهر، ووضعت معها ما بقي من لفافة الطفل. جلست على القبر أبكي أياما ثلاثة بلا انقطاع. حدثتني النفس كثيرا باللحاق بها. نهضت مرة وغرست الرمح في الأرض، حتى اشتد انتصابه لأعلى، ووقفت أمامه أراوغ الفعل لفترة (لا أعرف يا مولاي، أخوفا كان، أم حبا للحياة، أم نقصا في الشجاعة) ثم أخرجته من الأرض، وعدت لمطارحة قبرها البكاء. كان القبر في الطين، فلما رسمت عليه بالرمح دائرة، استعصت على الرياح محوها، ففرحت، ولكن السماء أرسلت مطرا قام بفعل عجزت عنه الرياح، فطمست الدائرة. غضبت ورسمت غيرها، وغيرها. كنت أسب وألعن كثيرا؛ كل ذرة رمل، وكل قطرة ماء بالنهر. كنت أريد أن أسمع صوتي طوال الوقت، وقد خشيت أن أعود إلى صمتي القديم، وقد عدت لوحدتي. لا أحد سوى الأرنب الأبيض الضخم، يمرق أحيانا عن بعد، فجرؤت مرة وناديته، فلم يتوقف. زارتني خيالات أيام الوحدة، فزادت همي (كيف يا مولاي احتملت حياة كتلك؟ كيف استطعت أن أعيش سنوات بلا أنيس، وأنا الآن أظن أني سأموت بعد لحظات إن لم أجد من أحاكيه؟ المدد يا مولاي). تتوالى علي لحظات من كره الحياة، ورجاء الموت، فأسعى لإدراكه، فلا يكتمل السعي غالبا. ولحظات من الصبر أمني فيها النفس بحياة مستقرة من جديد في

كنف الأب -الجبل- فكأنما أنا كرة يتقاذفها صبيان شقيان ما بينهما. في النهاية جاءت الفكرة، بعيدا عن إملاء المشاعر. فلا هو الموت، ولا العودة للجبل. سأقوم وحدي برحلة خلف الأمل الأخير. ومبتدأ الرحلة الثأر. وإن كنت آخر البشر، فلن أترك تلك الأرض إلا وأنا سيدها، لن ينافسني فيها وحش بلا عقل، مهما بلغت قوة بدنه.

وزعتُ الأدوار عليهم، فالتزموا بها. وحتى الأم -الشمس- مزقت حجابها لتشاركني خطتي. على الأب -الجبل- أن يحملني فوق صخره. بعد أن ذبحت بطرف الرمح صيدا وفيرا من الأرانب، كومته فوق بعضه لصق الصخور، مد لي الأب الجبل بروزا صخريا، فصعدت عليه لأطل منه عموديا على الطعم. على الرياح أن تجري برائحة الدم المسفوح، بحثا عن الذئب. ستتراقص له، وتنشد له أناشيد الغواية، حتى يتبع الرائحة إلى هنا. الأم -الشمس- كان دورها أن تظل معنا بنورها حتى تنتهي المعركة المرجوة، وحتى لو فات وقت غروبها، وهو ما كان؛ فقد حل ما يفترض أنه الليل، وبقيت الشمس تضيء العالم، حتى وإن تثاءبت، وبدا في ارتعاشة ضوئها، النعاس.

مكثتُ فوق البروز الصخري، قابضا على رمحي منتظرا. علّقتُ القوس والكنانة في كتفي، عساني أرجو منهما عونا إن طال القتال. فلما امتد بي الانتظار، قرص الجوع بطني، تمنيت لو احتفظت لنفسي بوجبة من أرنب مذبوح، بدلا من تقديمها كلها طعما للوحش، فأنا ما ذقت الطعام طوال أيام مضت في حداد (المدد يا مولاي، فلا يثقل الجوع، وهزال العمر جسدي حين القتال). ربما أهبط فأحصل على قطعة من أرنب أقتات بها، ولكن النار ستفضحني إن أنا أشعلتها للشواء؛ ربما إن التهمتها نيئة، ولكن -وحتى بعد

ثلاثين عاما من فناء الحضارة- وجدت الفكرة مقززة، فكان الصبر قراري الأخير. لطول الانتظار نمت، لا أعرف لأي وقت، ولكن الأرنب الأبيض الضخم جثم على صدري، كان يتشممني خائفا، ويصيح:

ـ «انهض.. هيا.. الآن»

قفزتُ من النوم جالسا، كانت الرياح آتية تجري، خبرتني أن الذئب قادم خلفها، شكرتها وانتويت أن أعتذر لها لاحقا؛ فقد أسأت الظن بها، وظننتها خانتني، ولم تذهب إلى الذئب. طلبت منها أن تتوارى بعيدا، فلا تحمل رائحتي إلى الوحش. رأيته يتقدم من الأب -الجبل- يجري. ارتجف الجبل انفعالا، وهمس لي:

ـ «إن أردتني أن أسقط أحجاري عليه، سحقته»

ربتّ عليه وقلت:

ـ «فداك روحي يا أبي. معركتي هي، ولن تقتله إلا يديّ»

لما بلغ الذئب كوم الطعام توقف وتشممه. رفع رأسه وتشمم الهواء بعدها. كنت أطل عليه بنصف عين، منبطحا فوق البروز الصخري، خشية أن يلمحني. عوى فأثار ريحا كريهة، ثم بدأ يأكل. همس الأب -الجبل:

ـ «لينصرك الله»

فكانت كإشارة هجوم. قفزت من فوق البروز، مقدما سن الرمح، فإذا بلغ جسدي ظهر الذئب العظيم، واستويتُ جالسا على ظهره، كان الرمح ينغرس في مؤخرة رقبته. قفز الذئب تألما، فاستقام على قائميه الخلفيين. حاولتُ التشبث بفرائه، ولكن الجسد لم يكن استقر بعد من ارتجاج القفزة، فهويت عنه إلى الأرض. التفت إليّ محمر العينين، زمجر غضبا. رفع كفه، وهبط بها فوقي، فتدحرجت متفاديا، فما ضربت غير أرض خاوية، أثارت رمالها كثيفة.

استويت واقفا، وكان هو ينقض. راوغته في المساحة الشاسعة، وجريت منه. تمالك جسده من طيش الاندفاعة، وانطلق خلفي. كان يزمجر، والرمح مغروس في أعلى ظهره، وما من حيلة في يدي. صرخ الأب -الجبل:

ـ «أحضره إلى هنا. اجعله أسفل مني، فأنقض عليه»

ولكن في رأسي كان السبيل الوحيد لقتله، في معاودة اعتلاء ظهره وبلوغ الرمح. استدرت لمواجهته. انقض، فتفاديته. مر الجسد بجواري، فقفزت قابضا بيديّ على فرائه الكثيف. حاولت أن أدفع جسدي لأعلى، فأبلغ ظهره جالسا، ولكنه انتفض بقوة فأسقطني. لم أنهض من سقطتي بذات السرعة، فلم أتمكن من تفادي انقضاضته التالية إلا بقدر سمح لمخالبه بملامسة كتفي، فشعرت بنار تخرج منه. ارتج الأب -الجبل- وشهقت الأم - الشمس. كنت أصارع وحشا، وأصارع معه بدنا عجوزا غير ذي قوة، تداعت كفة الميزان تحتي، وأقبلت الهزيمة تسعى. حين انقض أعدت الكرة، تفاديته، فقبضت على فرائه، فرفعت الجسد، فبلغت ظهره هذه المرة. قبضت بقوة على فراء ظهره، تشبثت به كالمتشبث بالحياة. تقافز محاولا إسقاطي. كان يطيح بي في الهواء، ثم أعاود الاصطدام بظهره، ولكن أبدا ما تخلت كفاي عن التمسك به. ولكن قوتي المحدودة تكاد تصرعني، والتعب يسابق الإرادة للنيل مني. أعلم أنها فرصة واحدة وأخيرة. في لحظة ارتكزت بقدمي، وقفزتُ بالغا الرمح. تعلقت به بذراعي، وبساقي لففتهما حوله، فأخذه ثقل جسدي، وغرسه أكثر في جسد الوحش، فشعرت -وأنا المعلق به- بارتجافة عبوره بين العظم. سقط الوحش، فقفزت بعيدا، قبل أن يقع ثقله فوقي. سقطت على كتفي المصاب فصرخت. حاولت النهوض، فلم أقو. ارتجف جسده الممدد لفترة، ثم قفز واقفا. كان يضرب الأرض بقدمه، فلا أدري أغضبا أم تألما. رفع رأسه، فتواجهت نظراتنا. عوى، فكانت عيناه مشتعلتان غضبا. قبضت على القوس، وشددت الوتر بسهم، وأحكمتُ التصويب. لو انقض علي الآن، فأنا

هالك، فماذا يفعل السهم البائس، فيما فشل فيه الرمح العظيم. قررت ألا أطلق سهمي إلا إذا انقض، فتقترب المسافة بيننا، عساه يكون تأثير السهم أقوى. حين انقضّ، انتظرت بلوغ مسافة كافية، سأطلق سهمي، وأتدحرج مبتعدا. ولكنه سقط صريعا قبل أن يبلغني، فما كانت محاولته اليائسة، سوى انتفاضة أخيرة لمغادرة الروح.

استسلمتُ للرقاد، فكان البدن يصرخ، وألم الكتف محتملا بالكاد. ولكنها السعادة ما كان يحيل بيني وبين الانهيار لحظتها. سعادة الإنسان البكر، حين أدرك أنه الأقوى -رغم ضآلته- بين كل سكان الأرض. أنا الوحش هنا. أنا مالك الزمان والمكان. نهضت -لدهشتي- فلم أستشعر ألما. عانقتني الأم -الشمس- مبتهجة، فكان في دفئها المدد. ربتّ على الأب -الجبل- فقال:

ـ «فخور أنا بك»

سكبت عليّ الشمس من ماء الغيوم أمطارا، فغسلتْ جرحي. وكأنما نهضت لتوي من نوم مريح، قطعت الطريق عائدا إلى النهر. بهجة النصر هيأت لي أن أتم بناء الفلك الآن، وأخوض رحلة الأمل الأخير.

كالوس..

يا إنسي صبرا؛ فلم تزل في جعبة الأيام حيل. أنا المختال بمكره. أنا القافز فوق الأزمان. أنا الممتد بطول عمر أسلاف أسلافك. أنا الشاهد عليكم، أيها الجهلاء، الضعفاء. أنا من أقسمت بعزة الخالق ألا أهزم أمامك يا آخر البشر.

مسّدت فراء الحيوان المسكين. أيها الذئب ارقد سالما؛ فلطالما كنت لي عونا، وقوة. وما في موتك غير خطوة على طريق المراد، فاهنأ بمقتلك.

أنا مسير الزمن لإرادتي. لا حاجة بي لذاك الجهول قتيلا؛ فطوال حياته التافهة لم يجد من يخاف على عمره سواي. حتى أبوه الذي رماه طفلا في غياهب المنجم، لم يكن ليخاف عليه بقدري. لن يموت الإنسي، أو يقتل إلا بيديه هو، وهذا وعد عليّ مفعول. أنا من سأحميه إن لزم الأمر، حتى يتحقق الوعد. فارحل يا أحمق وراء الحلم الكاذب؛ فكلما ازداد اندفاع الأمل، كلما عظمت لطمة اليأس.

(استوى الفلك أمامي يا مولاي تاما، أتعبني كثيرا ضبط الشراع، حتى باتباع دقيق لتعاليمك، ولكني نجحتُ بعد عناء. اختبرت قدرتي على طيه ثم إعادة نشره، فبات الأمر يسيرا بعد جهد تكرار التجربة. أنا البشري المنتصر بمكره، ورجاحة العقل، والفضل لك يا سارقي).

سهرتُ ليلتي أمام الفلك أتأمله. إعجابا في البدء، ثم تهيبا، فخوفا. ماذا إن لم يحمل لي العناء غير المزيد من اليأس؟ ماذا إن بقي المجهول وراء النهر، مجهولا؟ أليس الجهل أفضل من العلم بضياع الأمل؟ الشجن الساكن برودة المرور البطيء للرياح، تخللني، فبت ليلتي على حزن لا أدري مصدره؛ أمما فات هو، أم مما هو آت؟ نهضت إلى قبر الحبيبة، رسمت عليه بإصبعي دائرة أخرى، فبكيتُ. ربما إن كانت معي الآن لوجدت من يصد عني الحيرة. كم بت أكره وحدتي، فأكره حياتي، وأكره ذاتي. أخرجتُ الساعة وتأملت دوران عقاربها؛ ماذا إن عكست الدائرة، فسارت إلى الوراء؟ إلى يوم قررت فيه أن أرسم دائرة كبيرة حول الجبل؟ أعود فأمحو بيدي الدائرة، وأكمن في شق الأب -الجبل- مستدفئا، محتميا. فلا حكيم يسرقني، ولا فاتنة تعشقني، ولا أمل يغويني. أعدت الساعة إلى جيبي، ومددت الجسد فوق القبر، تخيلت الذراعين العاريين يخرجان من بين الطين، ويضمان الجسد المشتاق. كثيرا ما تحدثني نفسي بأن بيني وبين تحقق هذا الأمل قرارا واحدا، قرار كانت هي أشجع مني في اتخاذه. فيدركني صوت آخر في الأعماق ينازعني، بأن قاتل الذئب العظيم، ليس جبانا فيفر إلى الموت.

نمت على وضعي هذا، فكان الأرنب الأبيض الضخم يأتي من بعيد يدفع أمامه الأب -الجبل. لما بلغني، جرني من قدمي -فكنت سعيدا- وحشرني في الشق، فضمني الأب -الجبل- حانيا، ثم دفع الأرنب الأبيض الجبل فأعاده مكانه.

لما استيقظت، حملت القوس والسهام، وتجولتُ في الأنحاء أطارد الأرانب، فعدت بثلاثة منها. سلخت فرائها، وكومتها في الفلك. قبل انتصاف النهار، دفعت الفلك إلى الماء، واعتليته. لم تكن الرياح شديدة، وخبرتي لم تزل ضعيفة في تحديد اتجاهاتها. نشرت الشراع في البدء، ثم دعوت الرياح لدفعي نحو الشمال، فما أجابتني. انتظرتها طويلا، فكان الفلك يتأرجح على صفحة الماء، دونما التقدم. فطويت الشراع، وأمسكتُ بلوح الخشب الذي نحته كمجداف، وشرعت أضرب به الماء.

إبحاري الأول هو، فكان أصعب من التخيلات الوردية، وإنما كنت مستمتعا -لا أنكر- بالانسياب الهادئ للجسد المحمول على الفلك؛ فأنا منذ الفناء لم أجرب الركوب؛ قطع المسافات دون تحريك البدن، فكانت القدمان سعيدتين بالسفر المريح، وإن ضاقت به الذراعان بعد حين. كنت أحاول أن أتسلى بمراقبة ما أمر به على الضفتين، فلا أرى جديدا. ذات الكلأ، وذات الرمال وراءه، وأرانب تتقافز أحيانا على الشاطئ، تسكن حين مروري وتراقبني؛ هي كذلك لم تعتد أن يمر على سطح الماء مسافر. فلما مر وقت، كلّت الذراع، وأصابني التعب، وبعض من ملل. تركت المجداف، وتركت الفلك يتأرجح، وتمددت مستريحا. أنظر إلى أعلى، أتأمل مر السماء فوقي مع السريان البطيء للفلك مع التيار، ونسيم نهاري يداعب وجهي، فتراودني الروح ألا أرجو من الكون غير ذلك؛ فربما التيه الأبدي في مجرى النهر، ليس بالفكرة السيئة؛ أو ربما أنا -بعد عناء- بحاجة للاستسلام لشيء ما. على هذا الحال غفوت، فجاءني الأرنب الأبيض سابحا خلف الفلك، يجر وراءه الأب -الجبل- طافيا. كان الجهد ثقيلا، والأمل في إدراك الفلك واهن، فصرخ الأرنب علي أن أتوقف، فجدفت بقوة مبتعدا.

حين صحوت كان في البدن ثقل، وفي الرأس دوار. تقيأت عصارة صفراء لوثت ماء النهر، فأدركت أن بي علة؛ ربما من المكوث (أنا القادم من حضن الجبال)

على السطح الرجراج. كان الليل وشيكا، وكنت في حاجة حارقة للاستقرار على سطح صلب؛ فكان هو وقت العودة إلى الشاطئ. جدفت حتى بلغته، غرست الرمح عميقا في الطين كوتد، ثم سحبت من الفلك حبلا طويلا يربطه، وربطت طرفه بالرمح. فلما استلقيتُ على العشب، ارتج على الجسد، فكان لم يزل يستشعر رجرجة الماء. ناوشني النوم من جديد متسلحا بتعب البدن، فصمدت أمامه لحين إشعال النار، وشي أرنب. كنت حملت علبة الثقاب -شحيحة الأعواد- معي، ملفوفة في طبقات من الأقمشة؛ خشية أن يبللها الماء، فأخسر معها أهم أركان الحياة. التهمت الأرنب إلا قليلا، ثم نمت.

اليوم التالي كان أكثر يسرا؛ ربما بفعل النوم الذي حرمت الجسد منه أياما، ثم أهديته إياه دفعة واحدة. ربما بفعل الطعام، وقد كنت أظنني سآكل صباحا ما بقي من أرنب المساء، فإذا أنا ألتهم أرنبا ثانيا كإفطار. وربما بفعل الاعتياد على ركوب الماء. وربما لأن الرياح أتت أخيرا؛ عاتبتها في المبتدأ ثم نشرت لها الشراع، فابتسمت بخبث وجرت عكس اتجاهي. مسني العناد فرفضت طوي الشراع. نازلتها بمجدافي، فكانت هي الأقوى. ولكني (أنا الذي هزم الذئب العظيم) كنت الأشد عزما. بعد قليل من وقت، وكثير من جهد، استسلمت الرياح، فصفقت لي، واستدارت تجري معي دافعة الشراع (مولاي -وأنا المدفوع بالأمل- ما عرفت المسافة الواجب قطعها خلف المراد. حدثتني أنت قبل رحيلك عن الشمال. فإلى أي نقطة من الشمال يمتد المسار؟). كان جريان الرياح هادئا، والفلك يتهادى. نظري يمسح الأفق من الاتجاهين بحثا عن أمارة وجود للمدينة المرجوة، فلا أجد سوى خواء. حين الغروب خشيت أن أضيع في الظلام، فتفوتني المدينة، فطويت الشراع وجدفت إلى الشاطئ. ربطت الفلك في الرمح المغروس أرضا. التهمت الأرنب الأخير ونمت، ممنيا نفسي بصيد وفير صباحا.

كالوس..

(كامن) -أنا- كان عليه أن يتصرف، فسامحه.

أنت يا (كامن) من يزيد الأمر عسرا بالإصرار الأبله. صدقني يا أخي، (كامن) -أنا- حزين لما يفعله، ولكنه فعل المضطر. يراقبك يا (كامن) وأنت تفتش الأرجاء عن صيد فلا تجد. التهمت كل ما كان معك، وبات الصيد ضروريا. يكاد (كامن) -أنا- يسمعك تصب السخط في الأفكار، وتتساءل عن اختفاء الأرانب التي كانت تتقافز طوال الوقت على ضفتي النهر. فيرجو لو يعتذر لك لأنه هو من حجبهم عنك، يرجو لو يسوق لك بعضا منهم كما يفعل دائما، ولكنه يا (كامن) يقاوم هواه لأجل مصلحتك. يجب أن تعود يا (كامن)، لا تنساق وراء الأمل. يراقبك (كامن) -أنا- وأنت تركب الفلك وتعبر الى الضفة الأخرى، عساه يوفق سعيك هناك، فما تجد -بعد جهد- سوى ذات الخيبة. ارحل يا (كامن). عد من حيث أتيت؛ فلا رزق لك هنا. ولكنك لم تزل تزيد الأمور عسرا على (كامن) -أنا- فتضع في فمك حفنة عشب، وفي جيبك تدس حفنات، ثم تعود إلى الفلك، وإلى النهر، مواصلا رحلتك. ليزداد (كامن) -أنا- حزنا من أجلك.

كانت الروح تحمل -فوق عبء الجسد- ضيق النفس باختفاء الأرانب ليومين متتاليين. تحدثني النفس بتوق شديد للعودة؛ فربما الأرانب لا تسكن تلك الأراضي. فكرت (أنا الضجر بأكل الكلأ) أن أعود -على الأقل- إلى أقرب منطقة وفيرة بالصيد، فأكوم مخزونا، وأواصل رحلتي. ولكن ما قطعته من مسافة يغويني بالاستمرار؛ فلعل فرج الله ينتظرني في موضع ما آت لم يزل؛ فأدس في فمي -كارها- حفنة من عشب، أتصبر بها. كانت الرياح تختفي ساعات من نهار، فكنت أناديها أحيانا، وأسبها أحيانا؛ فالساعد لم تعد به طاقة للجهد، بعد يومين بلا غذاء نافع. فكنت أستسلم كثيرا للسير البطيء للفلك مع التيار الصاعد للشمال، الذي يزداد سرعة كلما تقدمت. لم تزل أنظاري معلقة بالضفتين بحثا عن المدينة، بلا جدوى. بعد يوم آخر بات اليأس ينام في كنفي؛ تعجلي للوصول، عجل من سعي الإحباط إلى روحي، وبات التفكير في العودة أقرب للنفس مما كان، فما عادت بي رغبة لملامسة أرض أخرى جديدة، فاستسلمت لهدهدة الفلك، فنمت.

صحوت فكنت ممددا فوق العشب. كان الفلك مربوطا كما اعتدت تركه في الرمح المغروس في الطين. قمت متعجبا، أبحث حولي (أنا المختنق بدهشتي) عمن أخرجني -والفلك- من الماء، فلم أر غير الأرنب الأبيض الضخم قادما من بعيد يجري. بلغ مني قربا لم يبلغه قبلا. تقدم حتى رفع الرأس وتشممني. تراجع خطوات، ثم صرخ في الهواء، فخرجت من تحت أقدامنا الأرانب تسعى. تقافزت حولنا فاحترت ماذا أنا فاعل. الأرنب الأبيض الضخم كان يتأملني، ويدير رأسه في المكان وكأنما يشير بأنفه إلى الأرانب التي تلعب حولنا، يدعوني -ربما- لصيدها. كنت مندهشا أو ربما محرجا من وجود الأرنب العظيم، وربما فكرت ألا طائل من بذل الجهد، طالما أنني في حلم سرعان ما سأصحو منه. ولكنه نظر في وجهي، فمط رقبته نحوي، فأصدر صوتا حادا، وكأنما يلح علي في الدعوة؛ فما احتاج الأمر لسلاح سوى كف

سريع، فكنت أقبض على الحيوانات الصغيرة، فتصرخ وتحاول أن تخمش يدي، فأدركها بالسكين، وألقيها لتراقص الموت فوق العشب. حملت على الفلك عددا كافيا، وأشعلت نارا وشويت واحدا، التهمته -نهما- أمام العينين الراضيتين للأرنب الأبيض الضخم، الرابض على حدود وهج النار. حلاوة طعم الأرنب، وانتعاش الروح والجسد، المشتاقان للغذاء، جعلاني أدرك فيما يجري حقيقة لا حلما.

لما عدت إلى الفلك تبعني؛ قفز خلفي، عاودني هاجس الضياع بين الحلم والحقيقة، فمددت يدي إليه أبغي لمسه. ربت على فرائه، فكان ناعما مريح الملمس. استكان للمسة، وأصدر صوتا ودودا خافتا. تقبلت -مبتهجا- هذه الصحبة. نشرت الشراع، فجاءتني الرياح تداعبه. كان الفلك يجري بأسرع مما اعتدته، فاستبشرت بالرفيق الجديد. ربتّ عليه، فتقدم إلى مقدمة الفلك، وبقي هناك طويلا يتشمم الهواء. رأسه يوزع التفاتاته بالتساوي إلى كلا الشاطئين، فتفكرت (أنا المسجون في براح الأمل) أن الأرنب ربما قادر على قيادتي إلى المبتغى.

آملا سألته:

ـ «أتعرف مكان مدينة البشر الأخيرة؟»

أدار رأسه إلي، حرك أنفه سريعا، فما أدركت الجواب المقصود من حركته. أعدت السؤال، وكأنما هو -فقط- لم يسمعه:

ـ «المدينة؟ مدينة البشر؟»

حرك رأسه، فخيل لي أنها ربما هزة إيجاب، فقررت الاكتفاء بها أملا. كانت الأم -الشمس- تطل من أعلى أبراجها، وكنت ممدد الجسد، مستمتعا بدفئها، تاركا القيادة للأرنب. فلما غفوت، رأيت أرنبا أبيض آخر يقفز خارجا من الماء، ويهاجم الأرنب رفيقي. كانا متماثلين، فلما اشتبكا لم أدر أيهما

رفيقي، وأيهما مهاجمه. سرعان ما تلوث الفرو الأبيض بالحمرة، وتدافعا، فسقطا معا في الماء.

أفقتُ من غفوتي، فوجدت الفلك راسيا على الشاطئ. رفعت رأسي، كان الأرنب على الأرض ينظر -رافعا الرأس- إلى البعيد. لما أحس بحركتي، استدار إلي، وأصدر صوتا. قمت واقفا على رجرجة الماء، مواجها ذات الاتجاه. فرأيت من بعد (أنا المنتشي بهجة) أبنية قصيرة متناثرة. لم تكن مدينة كما تخيلتها، ربما قرية صغيرة هي، ولكنها -ربما- آخر دول البشر.

قفزتُ إلى الأرض. عانقت الأرنب؛ ربما شكرا، وربما لأني لم أجد سواه يشاركني فرحتي (الشكر لك يا مولاي، يا من غرست الأمل في القلب اليابس، فلتسمتع بما سرقته مني؛ فلقد دفعت لي مقابله ثمنا غاليا). هرعتُ نحو البنايات البعيدة، توقعتُ أن يتبعني رفيقي، ولكن صوت زمجرة أجبرني على الالتفات. كان ذلك الكلب الأسود يهاجم الأرنب. صرخت، وهممت بطعنه، لولا أن تذكرت لحظتها أن الرمح ليس بحوزتي؛ كان هناك يؤدي دوره الجديد كوتد لربط الفلك. قبضت على القوس، ولكن سير المعركة كان أسرع مني. في ثوان، وبحركة واحدة، تفادى الأرنب هجمة من الكلب، ثم عقره من رقبته، فسقط الكلب صريعا. دماء الكلب اندفعت غزيرة من رقبته، فلوثت الفرو شاهق البياض. لحظتها خفت منه؛ فأي أرنب هذا القادر على قتال كلب بتلك البراعة؟ تحركتُ مواصلا طريقي. كنت أسرع الخطوات، ألتفت خلفي كل حين، راجيا ألا أراه يتبعني، وقد سكنت القلب منه رهبة؛ فكنت أراه واقفا -لم يزل- عند النهر، فوق جثة مهاجمه، حتى غاب عن ناظري، وامتزج النهر بالأفق، فما عاد سواي، والرياح المتلهفة، والأم -الشمس- ساعة حنوها، وحلم قيد التحقق.

كالوس..

(كامن) -أنا- يحتضر يا (كامن). ليس يدري كيف فعلها، ولكنه الآن، وهو طريح بركة الدماء، يعتقد أنه مارس شيئا من الانتحار. الانتحار الذي يحاول منعك منه! أليس في هذا سخرية؟ (كامن) -أنا- انتحر، سقط في الخطيئة، حتى يعصمك منها. ليته صبر قليلا، لربما وجد مخرجا. ولكنه كان يدرك أن الأمور تزداد سوء. إبليس اكتشف حيلته، وإلا لما أتاك في هيئة الأرنب الأبيض، وقادك إلى تلك المدينة المزعومة. (كامن) -أنا- كان يراكما في الفلك معا، يراكما حين أطعمك من أرانبه الصغيرة، فكانت الحسرة تخنق أنفاسه، ألا يجد ما يفعله لتنبيهك. في تلك اللحظة ربما لم يكن التدخل يجدي، ولكن (كامن) -أنا- بلغ به الغضب حد اليأس، فلم يتوقف ولو لثانية لتدبر أفعاله. كان ساخطا على الملعون ربما، كان يبغي ثأرا ربما؛ ولكنه يدرك الآن، والروح على حدود الجسد الفاني، أنه ما بذل جهدا حقيقيا لإنقاذك، يدرك أنه ما فعل سوى انتحارا. (كامن) -أنا- حاول قتل إبليس الخالد، فأي حماقة تلك؟ تجسد ككلب أسود وهاجمه، ولكن فارق القوة شاسعا. (كامن) -أنا- لقي جزاء حماقته؛ فأرجوك ألا تماثله حماقة. عد من حيث أتيت يا (كامن)، أرجوك.

كالوس آخر..

أنا الذي كنتُ لكم سيدا طوال القرون. أنا الذي علمتكم ما لم تكونوا تعلمون، وأيدتكم بالنصر على جنس الطين. أنا من رُفع إلى العنان، فعدت إليكم محملا بأسرار الملكوت، وصبرا على لعنة لحقت بي، وحلما شاركتكم فيه، بأن تعلو أيدينا فوق رقاب ذرية آدم. أنا إبليس المعظم، يكون جزائي جحودا وخيانة من أحد الأتباع؟! الغبي -عاشق البشر- ظن بإمكانه التحرك والتخطيط، نائيا عن علمي. ذاك الذي باع بني جنسه لأجل قرينه الآدمي الدنس. وأنا الذي تركته يعبث، كأب يسمح لابنه بممارسة بعض شقاوته. وأنا الذي مددت في أجله عساه يتوب إلي. وأنا الذي أرجأت حسابه؛ خطيئة بعد الأخرى، حتى ملأت ذنوبه أركان الأرض. فالآن يحاول الذميم قتلي.

وقفت أراقب موته متشفيا. دماؤه كانت تسري في سيل بطيء، تمنحه فسحة أكبر لمعاينة عذاب الموت. مفتون بالموت أنا ولا أنكر؛ فهو تجربة أخيرة باقية لي لم أختبرها على مرور الأزمان. وضعت قدمي (الأرنبية) على رأسه (الكلبية). أيكون ظن الأبله أن وجودي في جسد الأرنب سيقلل من قوتي، إن هو واجهني في جسد كلب؟ أم ربما أراد أن يعاقبني على سرقة جسد الأرنب الأبيض منه؟ ربما تصرفه أثار فضولي -لا أنكر- أنا الممتد بعمر الكون. فسألته: «لماذا؟»

متحشرجا صوته من الموت، قال: «منذ ميلادي ولا هدف لي إلا إغواؤه؛ فإن سقط في الغواية، انقطع هدف وجودي، وبات البقاء بلا معنى»

قالها وأخرج آخر شهقاته، وتركني على المزيد من الحيرة.

لما قاربت المدينة، أدركت الاتساع الكبير لمساحة انتشار الأبنية الطينية ذات الطابق الواحد. فكانت مدينة أكبر مما ظننتها. كانت الرياح تسابقني متلهفة، فتسعى صارخة بين البيوت الواطئة. جريت عابرا الخطوات الباقية، إلى أول بيت لاقيته على حدود المدينة. المدينة عن قرب بدت بلا تخطيط واضح، والبيوت متناثرة كيفما اتفق، بلا تحديد لشوارع أو مسافات موحدة تفصل بينها. باب البيت الذي توقفت عنده كان من خشب قديم تآكلت حوافه، ولكنه لم يزل صالحا لستر باطن الدار. طرقت الباب، لا أبغي سوى لقاء بشري بت أفتقره كثيرا منذ رحيل الزوجة. طرقت الباب ثانية (أنا المسكون باللهفة) فسالت عني دمعة، لم أدر أهي لاستباق فرح بلقاء وشيك، أم لتكرار حزن قديم، عاد بذكر العقل للزوجة. طرقت الباب ثالثا، فتيقنت بعد حين أن البيت خال. تقدمت قليلا حيث تجمعات لبيوت متلاصقة. انتبهت إلى الأبواب المغلقة، والمساحات الخاوية بين البيوت. مقتضيات الأمل تقول إن الناس ربما في هذه المدينة ينامون الآن. طرقت بابَ أقرب بيت لي؛ الطرقة الثانية كانت أقوى، فالثالثة أكثر قوة. غادرته إلى البيت المجاور. طرقت الباب فانفتح. قفز القلب، لولا أن اكتشفت أن الباب كان مفتوحا بالأصل. ناديت عبر ظلام الداخل، ثم اجتزت المدخل إلى قلب البيت، فكان خواء محبوسا في الظلام (لعنك الله يا مولاي!). جريت بين البيوت. درت في المدينة دورتين. كنت أنادي في وجه عتبات البيوت دونما مجيب. لما تمكن اليأس من الروح، عدت إلى البيت المفتوح بابه؛ دخلته فكانت به حاشية على الأرض فافترشتها. نغمت الصمت السائد بصوت بكائي، حتى تعب القلب فنمت. رأيت الحبيبة تدخل علي في رداء اللقاء الأول المسحور؛ ركعت عند قدمي، وقالت:

ـ «مولاي، اشتاقت النفس لك»

فقلت:

ـ «آه يا مولاتي. كيف للروح أن تحتمل سجن الجسد العجوز دونك؟»

قالت:

ـ «أليس اللقاء وشيكا؟»

فقلت:

ـ «حين يرجوه لنا القدر»

قالت:

ـ «بل هو أمر بيننا، فلتذهب الأقدار إلى الجحيم»

ثم قبلتني طويلا، فقالت:

ـ «أنتظرك -لم أزل- مع ابننا. فلا تتأخر»

صرختُ أناديها حين الرحيل، فجرى الدمع موجعا، فصحوت، فكان الدمع لم يزل يجري. غادرت البيت إلى ظلام الليل. كنت مختنقا. ناديت الرياح فلم تأت. عدت إلى البيت، وأخذت سهما من الكنانة الملقاة أسفل قدمي، ثم خرجت لأرسم به على الأرض دائرة. انتظرت أن تمحوها الرياح، فما أتت. ركلت الرمل بقدمي فمحوت الدائرة، ورفعت الرأس إلى السماء، فحررت من الصدر صرخة لم يسمع الكون مثلها منذ الفناء.

ما أطلت الأم -الشمس- على الكون، صحوت. كنت مفترشًا الأرض في وسط طرقات المدينة. نهضتُ فكان الجسد عليلا، ولم أدر لعلته اسما. سرت متحاملا حتى بلغت البيت المفتوح بابه. أخرجت منه أغراضي، وحملتها عائدا إلى الفلك (مولاي -وأنت المستحوذ على الروح بأملك الكاذب- أين عساهم ذهبوا، ساكني تلك الديار المهجورة؟). لم أحاول أن أجيب (أنا

المنتحر بالاستسلام) على حيرتي، غير مبال. كنت أسير -كالفلك- تدفعني الرياح، فلا أدري إلى أي اتجاه أيمم وجهي. أو أي قدر من المسافات قطعت. لقد خذلني الأمل، فاللعنة على كل شيء؛ فما لي أبالي حين أنتوي استسلاما، لأي شيء أسلم عقالي.

لمحتُ من بعيد الحد الأخضر لضفة النهر، فتذكرت الأرنب الأبيض الضخم. ازددتُ من النهر دنوا، حين سحبت القوس، وشددت عليه سهما، عازما أن أقتل الأرنب إن رأيته. سألتهمه، فلن أبقي منه شيئا. وسأصنع من فرائه حاشية للنوم. ولكن لما بلغت مرسى الفلك -حيث تركته- لم أجده، ولا حتى جثة الكلب الأسود. لم أبالِ بالبحث. أخرجت الرمح من الأرض، وقفزت فوق الفلك. كان التيار هنا شديدا، صاعدا إلى الشمال؛ المزيد من الشمال. وما كان بي من قوة لأجدف عكس اتجاهه، عائدا من حيث أتيت؛ فما فعلت سوى الاستسلام له. نزعت الشراع من على الصاري، وتلحفته، فنمت عميقا، تاركا التيار يفعل بي ما شاء.

منذ الفناء لم أسقط في تلك الهوة السوداء. فراغ تام، بلا رؤى أو أحاسيس، بلا أرانب بيضاء، أو شيوخ لصوص، أو زوجات ساحرات، أو مدن أشباح. كان كصفاء النوم في قيلولة المنجم، في حضن الحجارة العتيقة للجبال. لما صحوتُ، انتابتني أحاسيس من ينهض من نوم ثلاثمئة عام وتسع، ولولا تغير إيقاع ارتجاجات الفلك؛ فربما ما كنت صحوت قبل المزيد من الأعوام. الفلك كان يهتز بشدة، حتى استعدت ذكرى دوار اليوم الأول لركوب الماء. لم أفهم من مكمني تحت الشراع ما يحدث، فلما عصفت بجسد الفلك ارتجافة شديدة مفاجئة، فبدا لي وكأنما قفز فوق الماء، انتبهتُ على شعور بتوجس، فنفضت الشراع عن جسدي، واستويت جالسا لاكتشف ما هناك.

(آه يا مولاي! آه يا مولاتي! آه يا أنا المعلق بين جبلين بمشنقة الحلم.. ليت تجمعنا كان في هذا الزمان وهذا المكان! فلربما صار لاشتباكنا معنى، يعصمنا

من الفراق. فهنا -وراء الأرض- لن نجد سوى ذواتنا نرتكز عليها لنرتحل في هذا الضياع الجميل).

الزرقة كانت بلا نهاية، تمارس عليها خيوط الأم -الشمس- رقصة ابتهاج. يلتف اللون الأزرق حولي، وكأنما الكون يُطوَى على جسدي. التفتُّ خلفي، فرأيت الخط الأصفر لمنتهى الأرض، يمتد غير بعيد عني، تتوسطه زرقة الماء عند مخرج النهر، حيث يُلقي ماءه في البحر الشاسع؛ ومع الماء ألقاني، فصحوت لأجدني في وسط تلك الأبدية الزرقاء. كنت سعيدا -ولست أدري لِمَ- سعادة توازي رهبتي كانت. مستسلم لشعور العجز (أنا الضئيل وسط اتساع الملكوت) وبرغم هذا مبتهجًا كنت! ربما هنا نهاية أفضل من الموت. إلى الضياع؛ هذا ما تتوق الروح إليه؛ اللامَوت، واللاحياة! ارتج الفلك بعنف تموج مفاجئ لماء البحر، فصرخت ما بين النشوة والفزع. قبضتُ على المجداف، وأخذت أجدف بقوة مبتعدا عن الأرض قدر المستطاع. اللعنة على البشر، على الحلم، على ثلاثين عاما من الوحدة، فها هنا حقيقة الضياع!

- «إلى الضيااااااااااااااااع!»

ضحكتُ، ثم بصوت أعلى ضحكتُ، ثم انفجرتُ في ضحك سبقني صوته -ربما- في عبور اتساع البحر. ثم بأعلى مستوى ممكن من علو الصوت صرخت مجددا:

- «الضيااااااااااااااااااااااع!»

فأجابني صوت كصافرة القطار. صوت عميق تردد من حولي، من لا اتجاه، ففزعت. ارتج الفلك من جديد بعنف. حبوت إلى طرف الفلك، محاذرا السقوط في الماء، إذا ما فاجأتني ارتجاجة جديدة. نظرتُ إلى زرقة الماء، فرأيت الخيال الضخم يعبر متمهلا من تحتي. تراجعت خوفا، وتابعت التموج الناتج عن التحرك السريع لذلك المخلوق قرب السطح. عبر من تحت

الفلك، وقبل الابتعاد، رأيت الظهر الأسود العظيم يلتمع في الشمس خارجا من الماء، ونافورة ماء تسعى لقبلة من السماء. أدركت أنه حوتٌ هائل الحجم. توجست، وإن تمكن مني فضول. قبل الفناء قالوا أن الحيتان ربما مخلوقات ودودة. ولكن كيف يكون الوداد مريحا مع كائن بهذا الحجم؟! ارتج الفلك ثانية، فتزلزل البدن خوفا. التفت حولي فرأيت الكتلة السوداء تعلو سطح الماء خلفي، في ارتفاع بيت من طابق واحد. لم أميزها في البدء، لولا أن ظهر لي التماع العين السوداء، من خلف جفن كالصخر. فأدركت أنها رأس حوت ثان. حينها بات التوجس رعبا، فالنظرة في عينيه نحوي، لم تكن ودودة أبدا. لوحت بالرمح أطعن الهواء مهددا، وصرخت صرخة تحد، عساه يتقهقر كما فعل الذئب من قبل؛ ولكنه بقي ثابتا على الوضع والنظرة المخيفة. تموج حينها سطح الماء تحت الفلك، فتأرجح طويلا. حافظتُ بصعوبة على اتزان الجسد، فاضطررت إلى التشبث بالقدمين واليدين، كحيوان على أربع. وعلى بعد أمتار قليلة، قفز حوت آخر من الماء، فتعالى أمامي بطول برج شاهق، حتى حجب عني ضوء الأم -الشمس- وصوت صافرة القطار يتعالى منه. دار حول نفسه، وعاد إلى الماء، محدثا موجة عنيفة أطاحت بالفلك، فما نفعني عناء التشبث، ولم أدر بنفسي إلا وأنا في الماء.

تلوى جسدي، في محاولة فزعة، للتعلق بأي شيء، هدأت دوامة الغرق، واستكان الجسد. فتحت عيني، فكنت -لم أزل- أغوص ببطء إلى الأعماق. لم أعتد فتح العينين في ماء مالح، فاشتعلتا ألما حارقا. كنتُ أنظر إلى أسفل برغم هذا. إلى قاع بعيد، ضائع في ضباب الأعماق. أسفل مني مر حوت عظيم، فبدا زمن امتداد الجسد كالدهر. وأسفل منه كان ثان. وأسفلهما ثالث. التفتّ، فكانت العشرات منهم على عمق البحر واتساعه. أحدهم كان

يسعى إليّ، انفتح أمامي فم في امتداد الأب -الجبل- فصرخت، فامتلأ الصدر، والعقل، والروح بالماء المالح، وغبت عن الوجود.

«لم يزل عند نهايات الكون
متسع شاسع للانهزام»

اطمئن أيها الإنسي. أنا إبليس المعظم. أنا -ولا أحد سواي- هنا من أجلك. فلا تخش شيئا.

لما فتحتُ العينين، كانت سماء مظلمة، ونجوم تمر من فوقي. وشيش الموج نبهني، فرفعت رأسي مستطلعا، فأعاقني ثقل المحموم، فعدت إلى الرقاد، وسعلت مرات. كان الجسد باردا، والشراع يغطيني، فأحكمت حصاره لجسدي. أدرت رأسي نحو اليمين، فما تكشف لي ما وراء الظلام إلا بعد جهد. فكان امتداد البحر -لم يزل- هو كل عالمي. ولكن الفلك كان يجري، وصوت ضرب المجداف للماء كان واضحا، نبهني الصوت لحتمية وجود قائد، فتحاملت على نفسي، ورفعت الرأس نحو مقدمة الفلك، فميزت وسط الظلام بياضه الشاهق؛ كان الأرنب الأبيض الضخم، يمسك بالمجداف، ويقود الفلك وسط البحر.

المرض سلّط علي ثقل النوم، فلم أدر كم مر بي من أيام، في رحلة يقودها الأرنب. كنت أفتح العينين على فترات، فأرى ضفة خضراء تمر بجوارنا، فأيقن أننا عدنا إلى النهر. خمنت أن الطريق ربما هو طريق العودة، وإن لم أدر إلى أي مطاف تنتهي هذه العودة.

أرى اليأس في أفكارك، وأشمه يسري منك تحت الجلد. أنا إبليس المعظم أجد في الهواء أريج انتصاري الساحق. كان علي أن أنقذك من الحيتان، ليتحقق المحتوم، وتنتهي بيديك لعبتنا الصغيرة. ولكن تشاكسني حيرة، وسؤال، عن فرحة أصابتني حين أخرجتك من الماء حيا؛ فرحة فاقت فرحة العابث بسلامة لعبته!

حين فترات الصحو ما كنت أرى الأم -الشمس- فلا أدري إن كانت تحتجب عني، أم أن العقل يأبى صحوا إلا بليل. كان يزورني شيء من قوة كل حين، فأقوى على رفع الرأس، فأجد الأرنب فوق رأسي يطعمني العشب في فمي؛ كنت أحاذر الاشتباك بمخالبه وأنا أتناول من يده الطعام، فلما يطمئن لعبور العشب حلقي، يقفز عائدا إلى مجدافه، وأقفز عائدا إلى نومي.

الصحوة الأخيرة جاءتني باشتعال مباغت للعقل؛ فالسطح المستقر، والرائحة العطنة، أمورا ما اعتدتها في ركوب الماء. ما كنتُ بحاجة لجهد لأدرك أنني ممدد في حفرة مستطيلة في باطن الطين على هيئة قبر لم يردم بعد. شهقت واعتدلتُ جالسا، فارتفعت الرأس فوق مستوى حافة الحفرة، فرأيت -برغم الليل- شاطئ النهر والعشب الكثيف حولي. غادرتُ الحفرة مقبوض الفؤاد، فما كان هناك غير الخواء. لم يجد الخيال متهما غير الأرنب الأبيض الضخم، ربما ظنني مت أو أحتضر، وربما لهذا رحل. نظرت إلى حافة النهر فلم أر الفلك. اقتربتُ، فوقفتُ فوق الماء ناظرا إن كان الفلك في الماء، فلم أجده. عدت إلى حيث قبري الفارغ، بحثت حوله فلم أجد من حاجياتي شيئا؛ لا الرمح ولا القوس ولا سهامه، ولا أي شيء (مولاي، لقد كثر اللصوص حولي. ولكن، أترى لماذا ينقذني من الموت كل لص ألاقيه قبل أن يسرقني؟!).

تراجعت خطوات فاصطدمت القدم بنتوء في الطين. قربت الوجه ناظرا فعرفت قبر الزوجة والولد؛ لقد أعادني الأرنب إلى مبتدأ رحلتي. جلستُ بجوار القبر باكيا، فلما هزمني التعب قمت إلى القبر المحفور ورقدت فيه. فكرتُ حينها أن الموت ليس سيئا، وما الخوف منه إلا عبث الفرار من المحتوم. رحت في نوم، فرأيت الأب -الجبل- يربت علي، قائلا:

ـ «عندي كان المبتدأ. وعندي سيصير المنتهى»

فصحوتُ مدركا ما هو محتوم علي فعله.

كالوس

أنا المتعالي فوق الفناء. أنا مخلوق النار، مخضع مخلوق الطين لمشيئتي. أنا المفتتح، وأنا الخاتمة. من فوق الغيوم كنتُ أراه في مسيرته الأخيرة إلى الجبل. الحزن على وجهه أبهجني، وانحناء الكتف تحت ثقل الهم، أبهجني. أنا المنتشي، المنتصر، الفائز، المعظم، المتمرد، العنيد، المارق، العاصي، الخالد، الطاووس، المغرور، الجميل، الفاتن، الساحر، القائد، العدو، النازغ، الماكر، العالم بالأسرار.

أنا الذي -من فوق الغيم- تحدثه النفس بما لم يعتده. تأسرني معاني مغايرة عن الحياة والهدف والمآل، فتتغير زوايا النظر للإنسي الأخير، فأجد في النفس توجسا!

المسيرة الجنائزية استمرت طويلا. قطع المسافات في الرمال أنهك أوصال الجسد، بدون رمحي أتعكز عليه. الأم -الشمس- لم تزل محتجبة، وإن طالتني قطرات من دموعها من وراء الغيم. الرياح تبعتني متباطئة، لا تصدر صوتا، تهيبا للموقف. فلما بلغت الأب -الجبل- وارى دمعة عني، وطأطأ الرأس حزنا. انتظرتُ منه كلمة تثنيني عن العزم، ولكنه اختار الصمت. كان يشجعني -ربما- بألم، وكأنما يعلن أنه لا يجد لي بديلا سوى ما انتويت. كنت أكره الوداع، أو تمثيل لحظات الأسى، ولكن الكف تحرك وحده للصخر الأملس، يربت على الجبل، واللسان يقول:

ـ «ساعدني يا أبي»

حاولت تسلقه، ولكن الجسد كان منهكا، ففضلت الانتظار فترة للراحة. اختبأت في الشق الصغير. فاستعدتُ حنينا كاد أن يثنيني عن العزم، ولكن حين أخرجت الساعة، وأخذت أتأمل دوران عقاربها، بدا لي حينها أسرع من المفترض... (أتمثل وجهك يا مولاي. وأتمثل وجهك يا مولاتي. سامحيني فلا أذكر ملامح وليدنا، ولكن أذكر ملامح قاتله، وأذكر الأرنب الأبيض. أتمثل كل الوجوه الآن، ولكن -مولاي ومولاتي- لا أذكر شيئا عن المشاعر. الوجوه كصور بارزة على صفحة صخر، لا تمنحني أية تصورات. ربما كنت أحب الذئب، وأكرهك مولاتي. ربما كنت لي قدوة مولاي، وربما كنت لي عدوا. لا أذكر شيئا عن المشاعر. لا أذكر حتى، إن كنت أحببت نفسي، أم كرهتها)...

أيقنتُ ألا مصيراً أفضل مما نويت. خرجت من الشق، فكان الصدر مغسولا، والقلب نقيا شفافا، والعقل صافيا، والنفس سمحة، متصالحة. وحتى البدن، عاودته قوة الشباب، فتسلقتُ الصخور بسهولة. لما بلغت القمة، مرت الرياح بي مولولة، فلوحت لها، فابتعدتْ. ربما هي -مثلي- لا تطيق الوداع. رفعت الرأس إلى السماء، أبحث عن لمحة ظهور للأم -الشمس- لعلي أظفر منها بآخر النظرات. فأبت الغيوم أن تنزاح -ولو لفرجة- عن الوجه الصبوح.

وقفتُ أراقب العالم المفتوح على معظم أسراره أمامي. من هنا أرى امتداد الصحراء، ألامس الرياح، أرى البنايات المتهدمة التي سكنتُها يوما، ألمحُ طيفا للنهر، وخضار حدوده، وحتى الأذن توحي لي باستقبال صوت البحر، وصراخ الحيتان. تقدمتُ إلى حافة الجبل، ونظرتُ إلى الرمال أسفل مني. نصف هذه المسافة حين سقطتها يوما تكسرت عظامي، فماذا إن سقطت المسافة كلها، فهبطت على رأسي؟ (المدد يا أبي -الجبل). أخرجتُ من جيبي الساعة؛ لعنتها، فما حملت لي غير الشقاء، ثم رميتها لأبعد مسافة غير آسف للافتراق. حاولت أن ألوك في عقلي كلمات تأبين عظيمة، تذكر الكون بإنجازاتي، فأدركت أن ما أنا سوى نكرة، مر من هنا ذات يوم! تقدمت خطوة أخيرة، فبت في مواجهة مباشرة مع جبني.

إنه أنا؛ أنا الرجيم، الخذول، الضعيف، الكفور، الخاسر، المطرود، الملعون، الخنّاس. أنا من أدركت أن اتصال آلاف الأعوام بالبشر، يزرع في القلب ما يفوق بهجة الانتصار. أنا الملهوف لإنهاء لعبتي، أخذل نفسي أمام خوف طارئ من النهاية. لابد للعبة وأن تستمر، ولأعتبر نفسي منتصرا طالما قدته إلى هنا. فلنستمر في اللعب إذن؛ سأغويه مجددا، سأداعبه بالأمل مرات، وأتلقفه باليأس كل مرة. ومهما كانت النتيجة، ومهما اشتد عوده، أو عظمت مقاومته؛ لن أبالي سوى بذات الشيء؛ أن تستمر اللعبة.

لحظة أن بدا الجسد قريبا من طاعة أوامر العقل؛ تنبهت على صوته يأمرني بالتوقف. ميزت الصوت قبل التفات البصر، فاستدرت على لهفتي، فكان هو. صرخت فيه، وما أدري أفرحا صرخت، أم استياء:

- «مولاي!»

قال والثغر ينكشف عن بسمة:

- «ماذا تفعل؟»

قلت وفي الروح تحد:

- «أضع حدا للمأساة»

تساءل:

- «أية مأساة؟»

صرخت:

- «أولا تعلم ما فعل بي شهد كلماتك؟ أولا تعلم حين تركتني على أمل كاذب أن المآل سيكون إلى اليأس؟»

كان مندهشا، فقال:

- «أمل كاذب؟ عم تتحدث؟ أنا نقلت لك من علمي، ومن حكمتي»

صرخت ثانية:

- «ألا لعنة الله على علمك وحكمتك! دعني الآن أضع نهاية للعبة كنت أنت مبتدأها»

قال:

- «بالموت؟»

قلت:

- «أتعرف غيره منتهى؟»

فقال:

ـ «المنتهى يحين بإرادة الرحمن»

ابتسمت، ونغزته بسخرية:

ـ «تتحدث عن الإيمان، وأنت محض لص؟»

صرخ كالمطعون:

ـ «لص؟!»

قلت والجسد يندفع نحوه:

ـ «بماذا تسمي ما كان منك؟»

وضع يده على كتفي، فأبعدتها، فارتسم حزن في عينيه، فقال:

ـ «أنا ما أردت غير الخير لك. ولم أكذبك حديثا. مدينة البشر الأخيرة موجودة، وسنجدها معا إن أردت»

قلت:

ـ «لقد سافرتُ إليها، فما وجدت غير مدينة أشباح»

فقال:

ـ «ربما شاب بحثك خطأ. ولكن وأنا معك، سيكون طريق الصواب متاحا لنا»

ابتسمت سخرية، وقلت:

ـ «ولماذا لم تشأ -بحكمتك- أن تفتح لي طرق الصواب من قبل؟ لماذا سرقتني ورحلت؟»

قال:

ـ «إن كانت الوحدة داءك، فها قد عدت إليك. ولن تصير وحيدا بعد الآن. وإن كان اليأس من العثور على البشر، هو مصيبتك، فقد أتيتك بما هو خير من آخر المدن»

فقلت منفعلا:

ـ «لا تراوغني بمزيد من الألاعيب. أنا أسألك: لماذا سرقتني؟»

ابتسم محاولا التهدئة، وقال:

ـ «تعال نهبط معا، وستجد إجابة حيرتك عند سفح الجبل»

صرختُ فيه:

ـ «لن أهبط. ولا تخادعني وكأنما طفل أنا. سأنهي حياتي الآن، سواء أجبتني أم لا»

قال:

ـ «حياتك ليست ملكك. لا تدع اليأس يدفعك إلى الكفر بالله»

فقلت:

ـ «ليس كفرا بالله أن أتعجل لقاءه؛ فربما في هذا تمام المحبة»

قال:

ـ «أنت من تراوغ نفسك. تعال معي، لم يزل في الكون أمل نسعى إليه»

قلت:

ـ «لا تحدثني من جديد عن الأمل»

تنهد، فقال:

ـ «أعتذر لأني أخذت أشياءك. ولكن إن أعطيتني فرصة، فقد تجد تأويلا لما لم تستطع عليه صبرا»

قلت:

ـ «تكلم الآن. ولا تنتظر مني أن أصحبك ثانيا دون فهم»

قال:

ـ «لقد ذهبت خلف أمل واهن. لم يكن بمقدوري أن آخذك معي< فأنت لم تزل فتيا، وأمامك عمر، فخشيت إن أنا اصطحبتك معي، ثم كان هلاكنا، فأكون قضيت على أي أمل للبشر»

قاطعته ساخرا:

ـ «فتي؟! عما تتحدث؟ ألا ترى طعنات العمر في وجهي؟»

مد يده إلى صرة يحملها، وأخرج قطعة من زجاج مكسور، وقال:

ـ «بل عمّ تتحدث أنت؟ انظر إلى وجهك»

نظرت إلى الانعكاس على الزجاج، فرأيت وجها شابا يطالعني. ذهلت فقلت:

ـ «كيف هذا؟ ساعتك أخبرتني أن ثلاثين عاما انقضت منذ الفناء؟»

فقال:

ـ «الساعة لا تخبر الصدق دائما»

لان العقل أمام دهشة الاكتشاف. فبات مفتوحا على تلقي كلماته.

ـ «لم يكن بجعبتي سوى حكايات كأساطير مبهمة، وأوصاف تقريبية للمكان. كنت بحاجة إلى عتاد، وسلاح، يدرأ عني شر المجهول. فكّرت طويلا أن أخبرك. ولكن فضلت أن أخبرك عن الاحتمال الأقل خطورة. عن مدينة البشر.

قلت لنفسي؛ لننطلق كل منا في رحلة مختلفة، فنختصر الجهد والأزمان. فإن أنا وجدت ضالتي، عدت إليك، وسأعرف بحكمتي كيف أجدك. وإن أنت وجدت ضالتك، فقد نجوت. وها قد شاء الله أن أجد ضالتي، وأعود إليك في الوقت الصحيح»

قلت:

ـ «عن أية ضالة تتحدث؟»

فقال:

ـ «عن الجنة. جنة لم تزل على الأرض قائمة. بأشجارها، وثمارها، وينابيعها، وحيواناتها»

قلت:

ـ «رحماك يا مولاي من كذب أمل جديد!»

فقال:

ـ «ليس كذبا. تعال نهبط معا، فأريك الدليل»

أراد القلب اتباعه، فما عارض العقل كثيرا، فوجدتني أتقدمه هابطا. كان البدن أكثر قوة وشبابا، فكنت أتحمل جهد الهبوط، وجهد مساعدة جسده العجوز الهزيل، حتى كنت أحمله في أحيان، إذا ما استعصت عليه خطوة. في النهاية هبطنا، فجلس على الأرض يصارع الصدر اللاهث. تركته ودرت حول الجبل أستطلع صوتا ما سمعته. فإذا بغزال مربوط بحبل إلى صخرة بارزة. قبل اكتمال الدهشة، كان هو قد تبعني، وقال لما رأى العجب في نظراتي:

ـ «أرأيت؟ هي قطرة من بحر الخير الساكن جنتنا»

ثم ربت على كتفي، وقال والوجه تضيئه ابتسامة:

ـ «أتذوقت من قبل لحم الغزال؟»

فقلت:

ـ «لا»

فقال مرحا:

ـ «أنت الليلة ضيفي»

ثم أضاف جادا:

ـ «وغدًا نرتحل إلى جنتنا»

اقتربت من الغزال، مسدت عنقه، فمال برأسه يمسحها في صدري، فضحكت. بعدها تعاونا على ذبحه، وأشعلنا نارا، وكان هو يحمل من أفرع الشجر، ما إن أوصله ببعضه، صارت قائمتين وعارضة قوية لتعليق الغزال المذبوح فوق النار. أكلنا فامتلأنا، وأكملنا سعادة الليل في حكاياته عن الجنة الموعودة، حتى نمنا مثقلين.

في الصباح قمت، فوجدته واقفا ينظر بتركيز إلى الأفق البعيد. اقتربت منه وسألته:

ـ «ماذا ترى؟»

أنا الممتد من المبتدأ إلى المنتهى. حان الأوان المنتظر، وما حسبت له حسابا. لن أخبره؛ فربما كان للعبتنا امتدادٌ لم يزل، فأنا لا أعلم كم من وقت سيستغرقه اكتمال الواقعة.

فقال:

ـ «لا شيء. احمل حاجياتك وهيا بنا»

كنا نشرع في بدء السفر، حين اهتزت الأرض بعنف تحتنا. قلت:

ـ «زلزال هو ربما»

فقال مختصرا الحديث:

ـ «ربما»

ثم سبقني متكئا على عصاه. حينها زلزلت الأرض ثانية، فوقعنا. توجست، وسألته بعضا من علمه:

ـ «ماذا يحدث؟»

فقال:

ـ «لا شيء»

ثم نهض إلى الأفق الذي تركناه خلفنا. كان يتأمل في البعد بتركيز، فزاد توجسي. ثم حمل من الأرض قبضة من رمال، فنثرها في الهواء. استدار بعدها، وهو يجد الخطى في اتجاه رحلتنا، ويقول:

ـ «لنسرع إذن»

لم أفهم شيئا مما حدث، ولم أشأ أن أسأله، فيحدثني من جديد عن الصبر وافتقار الحكمة. فقررت أن أتبعه صاغرا.

نثرت الرمال في الهواء، فسحرت عينيه. لن يرى ما يحدث حتى لحظة انقضاء الأجل. وحدي كنت أرى -عبر مسافات وأزمان- انشقاق الأرض، وغليان

البحار، ووقوع النجوم. برغم هذا، دعوت الله أن يكون في العمر متسع للعبة قادمة.

* تمت *

◄ المؤلف ►

أحمد الملواني

أديب وسيناريست وكاتب مسرحي مصري.

✪ مواليد الإسكندرية 1980.

✪ حاصل على ليسانس الآداب قسم علم النفس - جامعة الإسكندرية.

✪ الجوائز:

✱ عام 2009 جائزة (نبيل فاروق) لأدب الخيال العلمي. مركز أول.

✱ جائزة المسابقة المركزية لقصور الثقافة مرتين.. 2011 مركز ثاني عن المجموعة القصصية (سيف صدئ وحزام ناسف).. 2014 مركز ثالث عن رواية (ظل الشيطان).

✱ عام 2015 جائزة صالون إحسان عبد القدوس. مركز أول. قصة قصيرة.

✱ عام 2015 جائزة أخبار الأدب ـ مركز أول، عن رواية (وردية فراولة).

✱ عام 2015 جائزة (ربيع مفتاح) للرواية العربية ـ مركز ثاني، عن رواية (مفتتح للقيامة).

✱ عام 2019 جائزة (ساويرس) الثقافية ـ مركز أول، عن رواية (الفابريكة).

✱ عام 2019 جائزة (كايرو شو) للنص المسرحي ـ مركز ثاني، عن مسرحية (ع الهوا).

✪ أعماله المنشورة:

- زيوس يجب أن يموت (رواية) 2010 – دار أكتب.
- أزمة حشيش (مجموعة قصصية) 2013 – دار المكتبة العصرية.
- سيف صدئ وحزام ناسف (مجموعة قصصية) 2013 – دار سما الكويت.
- مفتتح للقيامة ط1 (رواية) 2014 – دار هيباتيا.
- الروحاني (مجموعة قصصية) 2015 – عصير الكتب للنشر.
- وردية فراولة (رواية) 2019 – دار المصري.
- الفابريكا (رواية) 2018 – الدار المصرية اللبنانية.
- ما يشبه القتل (رواية) 2020 – الدار المصرية اللبنانية.

✪ في مجال الكتابة الدرامية:

- قام بتأليف أكثر من مسرحية للبرنامج التليفزيوني الشهير (تياترو مصر) في موسمه الرابع 2017/2016.
- شارك بالكتابة في المسلسل الكوميدي (شاش × قطن) (رمضان 2017).
- تأليف مسرحية (جوازة مرتاحة) والتي عرضت في صيف 2019.